مُتصوَّر الكلمة وإدراك العالم

أ.د. أحمد يوسف *

جامعة السلطان قابوس - عمان

ahyoucef333@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021 / 08 / 04	2021 / 08 / 11	2021 / 10 / 28

مُلَخَّصُ البَحث

يتناول هذا البحث علاقة مُتصوَّر "الكلمة" بإدراك العالم ضمن رؤية شاملة ترصد الأبعاد المُشار إليها في هذه الدراسة، ويستعين في رصد هذه العلاقة بالمعجميّات واللسانيّات والسيميائيّات وكل علم يساعد على فحص الفرض وتحقيق الهدف. ومن منطلق أنّنا لا يمكننا معرفة العالم، والتعرف إلى أشيائه وموضوعاته خارج سلطة الكلمة التي بدأ بها الخلق حسَب اللاهوت المسيحيّ. وهذه الصيغة ستحلّ فيها العلامة محلّ الكلمة في الدراسات السيميائيّة الحديثة، وهو تغيير لا نعتقد أنّه وصل إلى مقام الإبدال والقطيعة الإبستيمولوجيّة. وحجتهم في استبعادها من اللغة الواصفة الاشتباه والغموض الذي يلازم استعمالها، وافتقارها للانسجام والوحدة التصوّريّة والصفاء الاصطلاحيّ.

الكلمات المفتاحية: السيميائيّات - الكلمة – العالم – الإدراك – الجملة – الكلام.

Abstract

This research presents the relationship of the perception of the "word" with the perception of the world within a comprehensive vision that monitors the dimensions referred to in this study. The study uses lexicography, linguistics, semiotics, and every science to examine the hypothesis and achieve the goal in monitoring this relationship .

Since we cannot know the world, its subjects and objects outside the authority of the word in which the creation began according to the Christian theology. In this formulation, the sign will replace the word in the modern semiotic studies which is a change that we do not believe has reached the point of substitution and epistemological disconnection. Their argument for excluding it from the describing language is the suspicion and ambiguity that accompanies its use. In addition to its lack of harmony, conceptual unity, and idiomatic purity.

Keywords: Semiotics - word - world - perception - sentence – speech.

الاسم واللقب والبريد الإلكتروني: أحمد يوسف - ahyoucef333@gmail.com

توطئة

لكل لغة من اللغات الطبيعيّة عددٌ -مَهْما كثُر أو قلّ- محدود من الحروف والكلمات يُعبّر بها القوم عن رؤيتهم للعالم، ويُسمُّون بها أشياءهم، ويقضون بها حوائجهم وأغراضهم، وتحتويها مفردات معاجمهم، وتلوكها منذ غابر الأزمان أفواه البشر، وتتباهى بعددها الشعوب والأمم. إنّ للكلمة رحلة شاقّة وطويلة عبر الأعصار والأمصار رافقت الخلق أوّل مرّة بحثًا عن العالم، أو أنّ العالم هو الذي كان ينتظر خلق الكلمات لِيُعرَف.

ورد في إنجيل يوحنا ((في البدء كان الكلمة، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ)) [إنجيل يوحنا (1: 1)]، وللكلمة معان في الذكر الحكيم منها القدرة الإلهيّة: ((وإذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون)) [البقرة: 117]، وصيغة "كن فيكون" تكرّرت ثماني مرات في القرآن الكريم، ودلّت في قوله تعالى: ((وَتمَّتْ كَلِمَةُ رِبّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)) [الأنعام: 115] على القضاء. وبها حصل التفاضل بين الأنبياء ((تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَهَ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)) [البقرة: 253]، فخصّ نبيّه موسى بالتكليم.

ومن دون التوغّل في السرديّات الكبرى التي فُتِنت بالكلمة أيّما فتنة، ومن دون التورّط في الأسئلة الميتافيزيقيّة التي يفرض بعضها نفسه علينا في مثل هذه الموضوعات نريد الوقوف على مُتصوَّر الكلمة، وعلاقته بالعالم وإدراكه. وهو مُتصوَّر بالغ الغموض، ولا يتوافر على التجانس المطلوب في الدراسات اللغويّة بفروعها المختلفة بما في ذلك الدراسات السيميائيّة التي قابلتها بالتجاهل؛ ولا سيما بعد أن أزاحت اللسانيّات الحديثة حضورها من التداول، وحلّت محلّها العلامة. وكما سيتبيّن لاحقًا في هذه الدراسة أنّ ثمّة التباسًا واشتباهًا للكلمة بمُتصوَّر العلامة، ولم يصْفُ مشرب الاصطلاح إلّا بعد لأي. هذا إذا سلَّمنا جدلًا بحصول مثل هذا الصفاء.

لا تتنزّل هذه الدراسة في باب علم التأثيل (Etymology) وموضوعاته، ولا في باب علم المعجم وقضاياه، ولا في باب علم المصطلح وإشكالاته، فلا تروم الحفر في تاريخ نشأة الكلمة وتكوينها على غرار ما تتقصّده الفيلولوجيا واللسانيّات التاريخيّة، ولا تتقفّى آثارها بالبحث الجينيالوجيّ والتقصّي التاريخيّ للوصول إلى الدلالة الأصليّة للكلمة. لا يعني هذا النفي بأيّ حال من الأحوال عدم الإفادة من هذه الحقول المعرفيّة؛ لأنّ ذلك سيتناقض مع اعتقادنا الراسخ بأهميّة الدراسات البينيّة، واستعانتنا بمناهج هذه العلوم وتطبيقاتها الإجرائيّة. وكيف لا والكلمة هي موضوع لهذه العلوم.

إنّ كلّ ما يعنينا في هذا الشأن الوقوف على الأبعاد اللغويّة والدلاليّة والأنطولوجيّة للكلمة في علاقتها بالعالم، قبل أن تحلّ العلامة محلّها قديمًا وحديثًا. فهناك هدف يكاد يكون وحيدًا في هذه الدراسة، ويتمثل في بيان علاقة الكلمة بالعالم وإدراكه ضمن بحث شامل يرصد الأبعاد المُشار إليها، ويستعين في رصد هذه العلاقة بالمعجميّات واللسانيّات وكل علم يساعد على فحص الفرض وتحقيق الهدف. ومن منطلق أنّنا لا يمكننا معرفة العالم، والتعرف إلى أشيائه وموضوعاته خارج سلطة الكلمة التي بدأ بها الخلق حسَب اللاهوت المسيحيّ. وهذه الصيغة ستحلّ فيها العلامة محلّ الكلمة في الدراسات السيميائيّة الحديثة، وهو تغيير لا نعتقد أنّه وصل إلى مقام الإبدال والقطيعة الإبستيمولوجيّة. وحجتهم في استبعادها من اللغة الواصفة الاشتباه والغموض الذي يلازم استعمالها، وافتقارها للانسجام والوحدة التصوّريّة.

إنّ تاريخ اللغات هو تاريخ إيماءاتها وصوّرها ورسوماتها وأيقوناتها وكلماتها وعلاماتها، وهذا التاريخ حمل الأمجاد والانتصارات والخيبات على السواء. عندما تُذكَر الكلمات تُذكر الأفكار والأشياء والأسماء والموضوعات، ويُستحضر اللسان والأذن واليد، ويدور الجدل أيّما أسبق العالم أو الكلمة؟ الشيء أو الكلمة؟ الفكرة أو الكلمة؟ باختصار إنّ هذه الأسئلة وغيرها تروم الوقوف على السؤال الأنطولوجيّ الآتيّ: ما علاقة الكلمة بإدراك العالم؟ وأيّ عالم تتقصّده؟ أهو عالم المادة أم عالم الذهن؟ وبعبارة أدقّ الوقوف على السؤال السيميائيّ الآتيّ: ما علاقة الكلمة بالمرجع؟ وهو سؤال دلاليّ-منطقيّ أيضًا.

إذا ربطنا الأشياء بالكلمات فإنّنا نظفر بوصف المسميّات، وتصنيف فئات الموضوعات، وهو إجراء منهجيّ يتبعه العلم في دراسة موضوع اللغة مثل التحليل بالمقوّمات الذي أجراه بيرنار بوتييه (1924- ...) Bernard Pottier على الحقل المعجميّ[1] لكلمة (siège) في الفرنسيّة دفعًا لشبهة التسليم بالترادف في اللغة. و((في الحدود القصوى التي قد تبلغها الدقة، يمكن نقول إنه لا يوجد "كرسيان" متطابقان))[2]؛ بيد أنّه أبدى استغرابه في اعتباطيّة اختيار السيمات (sèmes) بالقياس إلى العالم المُدرك[3]. وكان لهذه الأبحاث تأثير في الترجمة والتحليل السيميائيّ للخطاب؛ ولكن سرعان ما خفت بريقُ النظريّة السيميّة (théorie sémique) في المعجميّات والدلاليّات قبل السيميائيّات؛ ولكن ماذا بعد؟ فإذا تطابقت الكلمة مع العالم لماذا يتعدّد المعنى، ويتعدّد التأويل؟ وهو إشكال قد لا يجد إجابات مباشرة، وبخاصة عندما ينزاح المعنى بالوضع (المعنى الحرفيّ[4]) إلى معنى المعنى.

سننطلق من الفرضيّتين الآتيّتين: إنّ الكلمة لمّا يأفلْ نجمُها، ويخفت بريقُها، وأنّ قدرتَها على التسمية تقتضي وجود عالم الأشياء والموضوعات سواء أكانت ملموسة أم مجرّدة. إنّ الفرض الأوّل يمكن أن يعاينه القارئ في الدراسات اللغويّة التقليديّة (الفيلولوجيا) والحديثة (المعجميّات وعلم التركيب)، وحتى في الدراسات الاجتماعيّة وتحليل الخطاب[5]، وفي اللسانيّات بدرجات متفاوتة، وفي السيميائيّات البنويّة بصورة تكاد تكون نادرة جدّا وإنْ وُجِدت فهي في غاية الاحتشام، ذلك أنّ مُتصوَّر الكلمة لم يعد مُكوّنًا من مكوّنات مصطلحاتها، فحلّ محلّه مُتصوَّر العلامة والخطاب كما تقدّم؛ ولكن الاعتناء بالكلمة لم ينصرم حبله[6]؛ إذ خصّصت مجلة[7] بيلاغ (Bulag) عددها السنويّ 2002/27 للكلمات ومعانيها وأشكالها وإبداعها والتعرّف إليها. ويشير إيغور اسْكُورَاتُوف Igor Skouratov في افتتاحيّة العدد إلى ظهور الكلمة في اللغات المختلفة وطرائق التعرّف إليها من قِبل المتكلّم أو الآلة سواء أكانت غريبة أم مركبة أم جامدة. أمّا الفرض الثاني فمجاله الدلاليّات المنطقيّة وفلسفة اللغة.

يبقى البحث في الكلمات ساريًا ما دام هناك لغات طبيعيّة حيّة وعوالم ممكنة؛ إذ لا يقتصر البحث على علوم اللغة وما جاورها؛ وإنّما يمتد إلى العلوم الحديثة والتكنولوجيّات المعاصرة (المسح الحاسوبيّ للكلمات) التي تقدم أدوات عمليّة من أجل فهم طبيعتها وعلاج مشكلاتها في الكتابة والترجمة وقراءة النصوص. وهذا يتطلّب أيضًا المعالجات الآليّة للغة بمساعدة المعجميّات والمُصطلحيّات. ويترتّب على ذلك أن نتجاوز أحاديّة العلم في إيجاد حلول لمشكلات الكلمة بالتضافر مع علوم أخرى في إطار الدراسات البينيّة. والذي وجب التنبيه عليه أنّ هذا العدد بطابعه التقنيّ لا يتقاطع كثيرًا مع هذه الدراسة ذات المنحى السيميائيّ ببعديه الأنطولوجيّ والمنطقيّ؛ ولكنّه ينبّه على أنّ مُتصوَّر الكلمة لمّا تنقضِ فوائده، وتُحلّ مشكلاته.

مهاد نظريّ: مبادئ أوّليّة

يرتبط مُتصوَّر الكلمة في العادة بصناعة الكتابة والخط والحرف ووسائل الطباعة، والحرف في الأصل رسم للصوت، وتُعرّف الكلمة في اللغة المكتوبة على أنّها وحدة خطيّة يسبقها بياض، ويليها بياض، أو بعبارة معجم تحليل الخطاب ((قطعة خطيّة...معزولة ببياضين))[8]، أو يُميَّز بين الكلمتين في لغات أجنبيّة أخرى بالفاصلة العليا (apostrophe) مثل الفصل بين أداة التعريف والكلمات النكرة التي تبدأ بحرف صائت في الفرنسيّة " L'apostrophe" أو كلمة اليوم " aujourd'hui". وهو ما يُضْفي البعد الماديّ على هذا المُتصوَّر، ويجعله مقترنًا بالشيء مثلما نقف عليه في عنوان كتاب ميشال فوكو "الكلمات والأشياء"، ومعجم سيزار-بيير ريشولي (1626-1698) César-Pierre Richelet الذي ترك معجمًا[9] عُرِف بمعجم فرانسوا (Dictionnaire François) يتضمّن الكلمات والأشياء، وظهر عام 1680.

إنّ الكلمة كونها دالًّا خطّيًّا في اللغات المكتوبة لا تتّصل بدوال خطّيّة أخرى وإلّا عُدّت من الأخطاء في نظام الكتابة سواء في الرسومات والنقوش القديمة أو الطباعة الحديثة؛ ولهذا غدت "وحدة مهيمنة ومستقلة" في الخطاب المكتوب. ومن المعلوم أنّ تاريخ الكتابة الذي يعود إلى آلاف السينين قبل الميلاد، قد مرّ بأطوار عديدة ومديدة من التصويريّة في بلاد ما بين النهرين إلى اختراع الحروف الأبجديّة (أبجد، هوّز، حطّي...). وأقدمها السينائيّة والجنوبيّة والفينيقيّة والعبريّة والآراميّة والإغريقيّة والهنديّة والصينيّة. وقد جعل الفارابيّ صناعة الكتابة من علوم اللسان ((علم الألفاظ المفردة، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تركب، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين الأشعار))[10]. وخصّ علم الألفاظ المفردة بمدارسة الحروف المعجمة وبمخارجها وصفاتها وتحولاتها الصرفيّة في بنية الكلمة.

ولابن سينا (ت 428 هـ) رسالة في "أسباب حدوث الحروف"، تناول في الفصل الأوّل "سبب حدوث الصوت"، وفي الفصل الثاني "سبب حدوث الحروف". فإذا كان الصوت عمليّة فيزيائيّة (Acoustics)، و((سببه تموج الهواء دفعة وبقوة وبسرعة من أي سبب كان))[11]؛ فإنّ الحرف بنية ذهنيّة، وهو ((هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزا في المسموع))[12]. والواضح أنّ ابن سينا في تمييزه بين الصوت والحرف إنّما كان يتقصّد أنّ للظاهرة الصوتيّة بعدين فيزيائيّ وذهنيّ، ولم يعنه كثيرًا البعد الخطيّ على غرار التقليد الأرسطيّ.

قد يكون الدّال الخطّيّ حرفًا واحدًا مثل حروف الهجاء التي رتّبها الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 هـ- 175 هـ) حسَب مخارجها ((ع ،ح، ،هـ، خ، غ، - ق، ك – ج، ش، ض، - ص، س، ز، - ط، د، ت – ظ، ث، ذ، ر، - ل، ن، - ف، ب، م، - و، ا، ي، - همزة))[13]، والتي يكون بعضها مفصولًا داخل الكلمة، وعددها ستة في العربيّة (الألف والدال والذال والراء والزّاي والواو)، وحروف الجرّ (الباء والكاف واللام)، وحروف القسم (الباء والتاء والواو)، وتكون هذه الحروف في نسق الكتابة العربيّة متّصلة بكلمات أخرى (الاسم المجرور أو المُقسَم به)، وأفعال الأمر من الأفعال المعتلة "اللفيف المفروق" مثل: (عِ من وعى وقِ من وقى). وقد اختلف المؤرخون من علماء اللغة في تحديد جذر الكلمة أهيّ أحاديّة أو ثنائيّة أو ثلاثيّة، والأمر الذي استقرّ عليه الاعتقاد أنّ جذر

العربيّة ثلاثيّ في اكتماله ونضوجه، وقد وجدت ألفاظ في العربيّة من غير الداخلة في الجذر الثلاثيّ.

وقد يكون الدال الخطيّ مركبًا من كلمة أو كلمتين فأكثر[14] في الأسماء المركبة، والأصل في الكلمات الإفراد مع وجود دليل قاطع دالّ على التركيب[15]، والمقصود بالإفراد الذي لا يدلّ جزءُ لفظه على جزء معناه، ولا توجد أفعال في العربيّة مركّبة[16] بخلاف الأفعال في اللغات الأجنبيّة (find out/ run away/ give up)، فالتركيب وقف على الأسماء مثل: بعلبك ومعد يكرب وسرّ من رأى (pomme de terre/week end/foot ball)، وعلى الحروف مثل: لولا و(ch/sh/gh). فالتركيب هنا ما يقصده النحاة لا المناطقة[17]؛ إذ صنّف النُحاة المركّب إلى أسماء أعلام وأسماء غير أعلام. فهناك من أسماء الأعلام: المركّب الإضافيّ مثل: عبد الرحمن، والمركّب المزجيّ مثل: سيبويه وحضرموت والمركّب الإسناديّ مثل: سرّ من رأى وتأبّط شرًّا، وشاب قرناه.

أمّا الأسماء من غير الأعلام، فحصرها النحويّون في المركب العدديّ (من أحد عشر إلى تسعة عشر)، والظروف المركّبة (بينَ بينَ، وصباح مساء)، والأحوال المركبة ما كان في الأصل عطفًا (شذر مذر، وهي في الأصل شذر ومذر)، وما كان في الأصل إضافة (أيادي سبأ)، وأسماء الأفعال المركّبة (عليك بمعنى ألزم). وينطبق على ذلك ما يُعرَف بالمتلازمات اللغويّة أو المسكوكات التي لا تحتكم إلى السياق اللغويّ، وهي عبارة عن رصف أكثر من كلمة (دعوها فإنّها مأمورة)، وبعض هذه المسكوكات مقيّد مثل: (حيص بيص أو باسم الله)، وبعضها حرّ، وبعضها مجازيّ. وثبات تركيبها جعلها ظاهرة لغويّة اعتنت بها الدراسات المُعجميّة.

ومما تقدّم نستخلص أنّ التعريف اللسانيّ الغربيّ للكلمة بأنّها وحدة لغويّة خطيّة يسبقها بياض، ويليها بياض أو التمييز بين كلمتين بالفاصلة العليا يفتقر إلى المعايير العلميّة الدقيقة؛ إذ لا يتوافق مع مُتصوَّر الكلمة في اللغة العربيّة وحنّ في لغات أخرى، ولا يتّسع لمنجزه الذي صار علمًا من أصول الدين كما سيأتي بيان ذلك، بل نلفيه يتلاءم مع ملاحظة ماري-فرانسواز مورتيرو (1932- 2020) Marie-Françoise Mortureux التي ترى أنّه ((يمكن لعدة كلمات خطيّة ألّا تكوّن إلّا كلمة واحدة لسانيّة "صيغ تصرّف الأفعال في الأزمنة المركّبة"))[18].

ومن الأمثلة على ذلك في الفرنسيّة (Au fur et à mesure Pomme de terre -)؛ إذ لا يوجد كما سبق في الأمثلة التي سقناها في الأسماء المركّبة والمتلازمات اللغويّة استقلال دلاليّ لهذه الوحدات اللغويّة الخطيّة، بل يحدّدها التداول بمجرّد أن يسمعها أو يقرأها المتلقي يدرك أنّ لها وحدة دلاليّة ثابتة ومستقلة عن الدلالة المفردة للكلمات التي تتألف منها.

وهذه الدلالة هي بيت القصيد؛ لأنّها ترتبط بالمرجع الذي تحيل عليه، وهو العالم الذي تمثّله أو تعبّر عنه؛ ولهذا يعتقد فقهاء اللغة أنّ ((الكلمات التي لا تقول الواقع، وإنّما تقول تمثيله هي شاهد حسن على أزمات الضمير الجمعيّ))[19]، وبمعنى آخر فلا سبيل إلى طلب الدلالة إلّا بالاستعمال[20]. فالعالم الذي تقدّمه لنا الكلمات لا ينفصل عن المعطى الأنثروبولوجيّ والأنطولوجيّ والثقافيّ، وهو يندرج في مجال السيميائيّات وتحليل الخطاب؛ ولهذا نعتقد أنّ المعاجم العربيّة القديمة التي وصلتنا هي مادة لغويّة ثريّة صالحة للدرس الأنثروبولوجيّ. إنّها متون أنثروبولوجيّة يمكن أن تجد فيها المقاربات السيميائيّة الأنثروبولوجيّة ضالتها في فهم العلاقة بين الكلمة ورؤية الإنسان للعالم أو فكّ الحُجُب عن علاقة الكلمات بالأشياء.

جينيالوجيا اللغة ونشأة الكلمة

لا يحفظ لنا التاريخ حفظًا دقيقًا وأمينًا جينيالوجيا الكلمات جميعها التي انتهت صلاحيّة استعمالها أو التي تحوّرت عبر مسيرتها التاريخيّة الطويلة؛ لأنّ معنى الكلمة[21] لا يتوقّف على دلالتها الذاتيّة وعلى استقلالها عن العالم، وإنّما على سياقها حسَب المفهوم البُنويّ (القيمة عند دو سوسير) واستعمالها حسَب المفهوم التداوليّ (فيتغنشتاين)؛ ولهذا ألفينا أولئك الفلاسفة والعلماء واللّغويّين المتأثّرين بفكرة التطوّر يشبّهون اللّغة "بالكائن الحيّ"، وهذا التشبيه لازم حتى الّذين يُحسبون على البُنويّين مثل لوسيان تنيير[22] (1893- 1954) Lucien Tesniere. إنّ هذا الكائن اللّغوي يحيا، فيتطوّر، ثمّ يموت، وتنتهي كلماته إلى الزوال، وتفضي به الرحلة إلى الانقراض من أطلس اللغات. وقد خاض في هذه المسألة كل من أونوري جوزيف شافييه[23] (1815- 1877) Honoré Joseph Chavée وكارل فردينان بيكر (1804- 1877) Karl Ferdinand Becker وأوغست شلايخر (1821- 1868) August Schleicher.

أدرج أنوري شافييه علم الكلمات في المعجميّة[24] (Lexiologie) التي تبحث في أصول الكلمات، وتطوّرها وتحوّلاتها المتعددة قبل البحث في قوانينها. وقد أشاد بأعمال ولسن وشليغل وبوب وهمبولدت وغيرهم، وركّز على اللغات السنسكريتيّة والإغريقيّة واللاتينيّة والفرنسيّة واللتوانيّة والروسيّة والألمانيّة والإنجليزيّة...إلخ. وقد خصّص الجزء الثاني من كتابه لتكوين الكلمات، وتناول فيه ثلاثة أنواع من الكلمات، وكلمات التعجّب، والضمائر، والأفعال. أمّا الجزء الثالث، فخصّصه لتوليف الكلمات، فهناك صيغتان لهذا التوليف، وكذا الاشتقاق والتركيب. أمّا الجزء الرابع، فتناول فيه تغير الكلمات على الصعيدين الصوتيّ والمنطقيّ. وهو ينطلق من فكرة أنّ اللغة كائن لغويّ حيّ، وقد أفاد من تكوينه الأنثروبولوجيّ في المقارنة بين اللغات ودراسة دلالات الكلمات بغية الوصول إلى أصغر جزء فيها. وكذلك تناول البعد الإيديولوجيّ المعجميّ في اللغات الهنديّة الأوروبيّة[25].

روّجت فلسفة الطبيعة لجورج فرديريك هيغل (1770- 1831) Hegel Georg Friedrich وفردريك شيلينغ (1775- 1854) Schelling Friedrich في القرن التاسع عشر لمصطلح "الكائن الحيّ"، فاستُعمِل في الدراسات اللغويّة والأدبيّة والنقديّة وفي فلسفة اللغة، وهو يتألّف من أعضاء يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا عضويًّا، وكلّ له وظيفته. وتعني حيويّة هذا الكائن قدرته على الإنتاج والتطوّر مع الاحتفاظ بخصيصته النسقيّة والوظيفيّة. وهذا ما سيستثمره لاحقًا فردينان دو سوسير (1857- 1913) Ferdinand de Saussure للتمييز بين الدراسة الآنيّة للغة، والدراسة التطوريّة؛ إذ يمثّل المظهر النسقيّ والوظيفيّ للغة العلاقة التزامنيّة القائمة بين أقسام الكلام، في حين يمثّل المظهر التطوّريّ العلاقة التاريخيّة في تتبع تطوّر الكلمات. أمّا المظهر القطبيّ فيمثّل العلاقة التفاعليّة بين الأعضاء.

من المعلوم أنّ للّغة جوانب فيزيائيّة وفيسيولوجيّة ونفسيّة (ذهنيّة ومنطقيّة)؛ ولهذا وسمها العلماء والفلاسفة المتأثرون بنظريّة التطوّر أو المؤمنون بها بوسم الكائن العضويّ (Organisme du langage). ومن هؤلاء بيكر صاحب كتاب[26] (Organism der Sprache)، وهو من أشهر الأعلام الألمان، ومن المراجع التي يُعتدّ بها في قواعد اللغة الألمانيّة التقليديّة، ومن أشهر مؤلفاته: اللغة بوصفها كائنًا لغويًّا (1827) الذي وضع فيه أسس نظريّة التركيب في اللغة. واللافت أنّه سبق له قبل أن يُصدر هذا المؤلَّف أن انصرف إلى مدارسة "نشأة الكلمات" بغية

الوقوف على وظيفة اللغة وعملها من المنظور العام لمُتصوَّر "الكائن الحيّ"، وكان يركّز على "تكوين الكلمة وتحوّلها العضويّ" لفهم جينالوجيا اللغة وتطوّرها الحيويّ (Le mot dans sa transformation organique)، ولم يكن شغله موقوفًا على تتبّع نشأة الكلمة تتبّعًا تقليديًّا؛ وإنّما عالجها على نحو ما كان سائدًا في عصره معالجة لغويّة مقارنة تأثيليّة ودلاليّة، فلم يكتف بالدراسة الصوتيّة والصرفيّة للكلمة؛ ولكن اعتنى بمحتواها. يقودنا هذا المحتوى إلى علاقة الكلمة بالعالم من المنظور الفلسفيّ والمنطقيّ وبمصطلحنا من المنظور السيميائيّ؛ ولهذا ألفينا أرسطو (384 ق. م.- 322 ق. م.) Aristote يقف على الكلمة وأقسامها، وقبله أفلاطون (428 ق. م.- 348 ق.م.) Platon وبعض فلاسفة ما قبل سقراط (- 399 ق. م.) Socrate؛ ذلك لأنّنا بحاجة إلى الكلمات لتسمية أشياء العالم حتى تصير مُسميّات، والكلمة هنا ليست مادة صماء، وإنّما هي "كائن عضويّ" قابل للتقطيع. لقد كان لأقسام الكلمة دور في الإثبات المنطقيّ بأركانه الثلاثة (الموضوع[27] والمحمول والرابطة)، واستُخلِص من بعض المقولات الأنطولوجيّة الأرسطيّة (الجوهر والعرض تحديدًا) ما أفاد التفسير الدلاليّ والمعرفيّ في تحليل الجملة (النحو) والقضيّة (المنطق). وانصرف الدرس الجينيالوجيّ للبحث في نشأة الكلمات وأصولها إلى سلالة الكلمات الأخرى للوقوف على محتواها الدلاليّ، وهذا المنحى في التحليل أوقع اللغويّين في أخطاء جسيمة استمرت حتى عصر اللسانيّات التاريخيّة والنحو المقارن؛ لأنّها استندت إلى اللغة المكتوبة؛ ولهذا ظلّ الدرس اللغويّ ردحًا من الزمن لا يميّز بين الحرف (الصورة الخطيّة) والصوت (الصورة الأكوستيّة)، ولا يفرّق بين اللغة المنطوقة والمكتوبة، بل رسِخ في أذهان النّاس أنّ المكتوب أصل، والمنطوق فرع، فحاولت اللّسانيّات تصويب هذا الاعتقاد.

ينطلق بيكر من المصادرة الآتيّة: إنّ اللغة كائن حيّ مستقلّ ومكتف بذاته، ولكنّه يخضع لناموس التطوّر مثله كمثل أيّ كائن عضويّ آخر، ويحكمه المبدأ الصوتيّ والمبدأ المنطقيّ اللذان هما قوام "الصوت والمعنى". ومن هذه المصادرة طوّر بيكر نظريّته الخاصة بـ: "النحو الكلّيّ والفلسفيّ"؛ وذلك بالتركيز على البعديْن الداخليّ النسقيّ (Inneres) والخارجيّ التطوّريّ (Äußeres) للغة، وهو ما سبق أن أومأنا إليه أنّ هذه الأفكار كانت شائعة ذائعة في ألمانيا قبل دو سوسير. ومن المنطقيّ أنّ بيكر ليس بُنويًّا، وإنّما يصف بنية الكائن العضويّ للغة بشقيها التزامنيّ والتعاقبيّ؛ ولكنّه يركّز على البعد التطوّريّ لتتبع تكوين الكلمات وجينيالوجيا اللغة الألمانيّة، وأنّ التطوّر الحيويّ للغة يقوم على أساس الاشتقاق (Ableitung) والانحراف من أجل إنتاج كلمات جديدة. إنّ لنشأة الكلمات وتكوينها وجهًا منطقيًّا قلّما عالجه معاصروه من المؤرخين للغة الألمانيّة وفقهائها.

إنّ العالم الذي يتمثّله بيكر يكمن في هذا الكائن العضويّ الحيّ الذي يخضع لناموس التطوّر الطّبيعيّ. وأمّا ما يتعلّق بالتضاد القطبيّ، فإنّه يتحوّل في نظر بيكر إلى نفي منطقيّ: ((إنّنا في الحكم ألف ليس باء ننفي فقط هُويّة تشابه نوعين من جنس واحد، لكننا لا نحدد العلاقات الحقيقية لألف وباء))[28]. إنّ التضاد الذي يجتمع في وحدة يسمّيه بيكر الشكل المنطقيّ للفكر، وأنّ نضج اللغة وكمالها لا يتأتى إلّا من تحوّلاتها وتطورها. وعلى هذا المنوال تنشأ الكلمات، وتتطوّر. وهذا الأطروحة تلازمها فكرة تطوّر العالم؛ لأنّ اللغة ((أداء عضوي، وقد وهبت، شأنها شأن الأعضاء الأخرى في جسم الإنسان جنبا إلى جنب مع وحدة الحياة الروحية والجسدية...فإنّ منشأ اللغة لن يكون لها سوى مثل هذه الفكرة))[29]. وهذه الوحدة بين المادة والروح عماد الروح البشريّة التي

تجعل الإنسان بحاجة إلى الكلمة؛ لأنّه كائن يفكّر. وترتّبت على ذلك الأسئلة التي تطرحها فلسفة اللغة: ((أيمكننا أن نفكّر من دون لغة؟ أنعدّ الفكر لغة داخليّة؟ أليست المفاهيم العامة كلمات؟))[30]. ومدار الأمر على علاقة العلامة بالمرجع وإشكالاته السيميائيّة والمنطقيّة.

إذا سلّمنا جدلًا أنّ ثمّة وحدة بين الكلمة والفكرة، فأيّهما أسبق؟ ففي الظاهر إنّ اللغة تمثّل العالم الخارجيّ في مقابل الفكرة التي تمثّل العالم الداخليّ؛ ولهذا كان الأمر أقلّ صعوبة بالنسبة إلى علماء اللغة في تتبع نشأتها وتطوّرها بالقياس إلى فهم عالم الأفكار؛ ولا سيما الجانب العضويّ للغة المرتبط بالعوامل الخارجيّة مثل وجود الهواء وأجهزة البثّ والاستقبال. ولكن لم يتحمّس علماء اللغة إلى هذا الجانب الفيزيائيّ، فتركوه إلى علماء الطبيعة يتدارسون أمره بالملاحظة والتجربة والقياس؛ ولهذا لم ينتهوا إلى وجود علاقة واضحة بين الجانب الماديّ (الكلمة) والجانب المعنويّ (الفكرة). ولعل هذا ما ستعيد النظر فيه العلوم المعرفيّة تعميمًا، والسيميائيّات المعرفيّة تخصيصًا.

إنّ حجّة من يقولون بأسبقيّة الفكرة على الكلمة، يرون أنّ العناصر الماديّة التي تُسهم في الكلام مثل الهواء هي أسبق من التنفّس، والطعام أسبق من الهضم[31]. لقد شغلت هذه الأطروحة بيكر وغيره ممن كان يعنيهم فهم العلاقة بين عالم اللغة وعالم الأفكار، فلم ينتهوا إلى أجوبة حاسمة وقطعيّة، ولم يلووا على شيء تطمئن له الأفئدة. والرأي عند بيكر وهايمان ستينثال[32] (1823- 1899) Heymann Steinthal أنّه ((لا ينبغي للمرء أن يعتقد بأنّ اللغة قد حدثت بطريقة وكأن الإنسان قام بعملية بحث ووجد الأصوات والكلمات لكي يعبّر بها عن مفاهيم جاهزة في روحه. فالأشياء في الطبيعية تظهر بالضرورة بمجرد إعطاء الظروف العضوية لوجودها، وظهورها هذا الضروري من الناحية العضوية نسميه ولادة، وكذلك تولَد أيضا مع المفهوم، ولا يُبحَث عنها))[33]. وهذه الفكرة تسلّم بالضرورة الطبيعيّة.

لا تأتي هذه الضرورة الطبيعيّة نقيضًا لمفهوم الحريّة الملازمة للفكر والتصرّف في الكلام، ولعلّ ذلك بقي للكلمات سحرها[34] (word magic) وسلطتها35؛ وعطفًا على ما تقدّم فإنّ ((الحرية متطابقة مع الضرورة))[36]. وكلاهما يقتضي من عالم الكلمات والأفكار أن يتخلّى كلّ منهما عن بعض خصائصه في أثناء التفاعل بينهما حتى تصبح اللغة كائنًا حيًّا. وفي سياق التفاضل بين الرمز والإحالة يؤكد أوغدن وريتشاردز ((أنّ ثمّة إحالات لا يمكن إنشاؤها إلّا بالاستعانة بالكلمات، أي بالسياقات التي تكون الكلمات أعضاء فيها))[37]. وانطلاقًا من هذه الأسيقة يحدث تحول من حريّة الكلمة إلى تبعيّتها.

قد يستند أيضًا من يعتقد بأسبقيّة عالم الفكرة على عالم الكلمة إلى مبدأ الاستبدال أو المحور العموديّ في اللغة. فالاختيار أو الاستبدال يقتضي وجود سابق، وهو المُتصوَّر الذهنيّ أو الفكرة، كما أنّه يقتضي أيضًا الحريّة في الاستبدال والاختيار. ومع ذلك فإنّ الحريّة والضرورة لم تمنع التفكير اللغويّ في التسليم بوجود الاعتباطيّة التي تحكم عالم الكلمة والفكرة على نحو ما أشار إليها جون لوك[38] (1632- 1704) John Locke ضمن وحدة عبّر عنها الفكر الإنسانيّ بتلك الاستعارة التصوريّة "اللغة كائن حيّ" أو أنّ علاقة الصوت بالمعنى مثله مثل العلاقة بين الجسم والروح؛ ولهذا قالوا اللفظ بدن والمعنى روح. وعبّر عنها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (159 هـ - 255 هـ) أحسن تعبير ((الاسم في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى

للفظ روح))[39]. والجاحظ هنا يؤمن بوحدة الصوت والمعنى كما يسلّم به أيضًا بيكر.

إذا سلّمنا جدلًا بتطوّر الكلمة من منظور أنّ اللغة كائن حيّ، فإنّه يقتضي بالضرورة التسليم بالحركة الحسيّة، فلا تطوّر مع سكون. فأفعال الحركة غير أفعال الحالة؛ إذ نفهم من فعل "أشرقت الشمس" أنّ ثمّة حركة فلكيّة بين الشمس والأرض، وأنّ كلمة "أشرق" مرتبطة بعالم الشروق. وأنّ هذا العالم يقتضي الإدراك الحسيّ مثل الرؤية، ولا نفهم الشروق إلّا إذا استحضرنا الغروب، واستحضرنا مفهوم "الشكل المنطقيّ للفكريّ" الذي يقوم على الإيجاب والسلب؛ ولكن ما ينبغي أن نعتقد أن بيكر يفضّل الخصيصة النسقيّة للغة على الخصيصة التطوّرية، وأن آراءه ليست متماسكة دائمًا؛ إذ لا ينفكّ يعتقد أنّ اللّغة ما هي إلّا تجسيد عضويّ للفكر. إنّ الأصوات هي التي تتطوّر في اللغة؛ ولكن كيف لها أن تتحرّر من قوانين التفكير، وتؤثر في المكون المنطقيّ للكلمة[40]؟

يدفعنا السؤال السابق إلى العودة إلى مفهوم اعتباطيّة اللغة[41]، وارتباك فكر بيكر بخصوص هذه المسألة. إنّ الفكرة في نظره ((تندفع فوق الكلمة، لكنها لا تتجسد فيها؛ إنها متطورة بالكامل في حد ذاتها، وصوت الكلمة ليس سوى بهاء له، لا ضرورة))[42]. وهذا الرأي يؤكد أنّ بيكر يؤمن بأنّ عالم الكلمة منفصل عن عالم الفكرة من الناحية الفلسفيّة والمنطقيّة. ولا يكاد يختلف شلايشر كثيرًا عمّا ذهب إليه بيكر. وشهد القرن التاسع عشر انتصار الدراسات اللغويّة التاريخيّة والمقارنة. لقد كانت اللغات جميعها تنتمي إلى عالم واحد، وسرعان ما تفرّقت، فذهبت هذه اللغات شذر مذر. وقبل الإتيان على علاقة الكلمة بالعالم نعود إلى فكرة تقسيم الكلام في التفكير اللغويّ القديم.

أقسام الكلام في التفكير اللغويّ الإغريقيّ القديم

وضعت الدراسات اللغويّة الغربيّة القديمة الكلمة إطارًا للوصف، ومنوالًا لجدول التصريف[43]، وتقتضي هذه القواعد التي ركيزتها الكلمة كما تقدّم ((ثلاثة إجراءات رئيسية، وهي: تمييز الكلمة بوصفها كيانا مفردا، وتأسيس مجموعة من أقسام الكلمات لتمييز وتصنيف الكلمات في اللغة، وإيجاد فئات قواعدية مناسبة لوصف وتحليل صرف الكلمات، الداخلة في جداول تصريف الصيغ المترابطة وفي العلاقات النحوية التي تسود بين الكلمات في تركيب الجمل))[44]. كانت الكلمة في الممارسة اللغويّة التقليديّة قابلة للتقطيع الخطيّ كما عبرت عنها الأقوال الشارحة في القواعد الإغريقية واللاتينيّة.

من المعلوم أنّ تقطيع الكلام وتصنيفه لا يمكن فصله عن العالم الذي هو بدوره قابل للتقطيع. وهناك محاولات سابقة على أفلاطون وأرسطو[45] في الوقوف على أجزاء الكلام مثل السفسطائيّين؛ ولكنّ أفلاطون يعدّه المؤرخون وفقهاء اللغة أوّل من قسّم الكلمة إلى اسم وفعل، وهما القسمان الأساسيان، وأضاف لها أرسطو الروابط والضمائر والأدوات[46]. ووصل تقسيم الكلمات إلى ثمانية أجزاء[47] الاسم (ónoma)، والفعل (rhêma)، واسم الفاعل/اسم لمفعول (participe /metoché)، والأداة (àrthron)، والضمير (antónymia)، وحرف الجرّ (próthesis)، والظرف (epirrhéma)، والرابطة (syndesmos).

لم تكن لأقسام الكلمة الرئيسة (الاسم والفعل والحرف) وحدها السهم المُعلّى؛ ولكن هناك أدوار مهمّة لأقسام الكلمة الفرعيّة (Nebenwörter) مثل: أدوات التعريف وأدوات الربط والحروف (prépositions)، وهذا الذي

قام به أرسطو، وسار اللغويّون على منواله بعده كما أشرنا إليه سابقًا. والذي ينتهي إلى مصبّ هذه الدراسة أنّ ثمّة اشتباكًا مُعقّدًا بين النحو والمنطق، ومداره على وضع الكلمة في التركيب، والجملة والقضيّة؛ وإن كان مصطلح النحو في نشأته الأولى لا يكاد يتجاوز "فهم الحروف[48]" عند الإغريق؛ فإنّ دور الكلمة في علاقتها بالعالم طفق يتّسع مع الخطابة (البلاغة) والمنطق، وكان للكراتيليّة التي قدّمتها لنا محاورة أفلاطون دور بارز في النقاش حول جينيالوجيا اللغة وعلاقة الكلمة بالطبيعة والفكرة، وتمثيلها للخبرة الذهنيّة. ولخّصت الكراتيليّة الموقف من اللغة سواء أكانت علاقة الكلمات بالأشياء طبيعيّة أم اصطلاحيّة؛ ولكنّها حملت في طيّاتها أسئلة كثيرة أكثر مما حملت أجوبة.

لم ينته هذا النقاش مع أفلاطون، بل ما زال مستمرًّا إلى يوم النّاس. والرأي عند أرسطو أنّ اللغة اصطلاح ما دام الشيء ليس له وجود طبيعيّ حتى وإن وجدت كلمات تحاكي في أصواتها الطبيعة، بخلاف أرسطو انتصر الرواقيّون للموقف الطبيعيّ، وقّموا بديلًا عن النظريّ الأرسطيّة[49]. فالأسماء عندهم صيغت صوغًا طبيعيًّا ((أي من الأصوات الأولى التي تبدو مثل الأشياء التي تطلق عليها))[50]. وهذا ليس بغريب على الرواقيّين[51]؛ لأنّ موقفهم هذا ينسجم مع نظرتهم للطبيعة وفلسفتهم الأخلاقيّة. لقد اقتنعوا بأنّ للغة ((مقدرة إنسانيّة طبيعيّة يجب قبولها كما هي بكل شذوذها المميز لها))[52]. ولا غرو أن يراهنوا على الأنماط الأصليّة للكلمات التي تحاكي أصوات الطبيعة، وتتناغم معها حتى وإن حوّرها الاستعمال. وبما أنّ الكلمات ذات طبيعة ماديّة، فهي ليست بطارئة على العالم. وهذا ما سيلهج به لاحقًا برشيان دو سيزاري (Priscian (Priscianus المولود بمدينة شرشال بخصوص اللاتينيّة. ((إنه تماما مثلما تجتمع الذرات لتكون كل الأشياء المادية، فإن أصوات الكلام تكون الكلام المنطوق كما لو كان وجودا ماديا من نوع ما))[53]. وهذا التشبيه له بعد أنطولوجيّ لا يفصل الكلمات عن الوجود[54].

لقد ذهب الأبيقوريّون[55] مذهبًا وسطًا بين أرسطو والرواقيّين، وقالوا إنّ الكلمات هي في الأصل ذات منشأ طبيعيّ؛ ولكن طاولها التغيير بحكم الاستعمال والاصطلاح. وسينجم عن موقف أرسطو والرواقيّين من اللغة مسائل أصوليّة في النحو تتعلّق بالقياس والاطّراد والشذوذ، وسيكون له امتداد في البلاغة والنقد الأدبيّ في التمييز بين اللغة العادية واللغة الفنيّة؛ ولا سيما الانزياح والضرورة الشعريّة التي عليها مدار لغة الشعر. واللغة هنا ليست بدعًا من الطبيعة وظواهرها في الاطّراد والشذوذ.

الكلمات والإيماءات

ما زالت الإيماءات والعلامات ولغة الجسم ماثلة في التواصل والمحادثة والحوار في ثقافات الشعوب، وملازمة للغاتها، ومعبّرة عن عوالمها تعبيرًا إيقونيًّا ورمزيًّا وإشاريًّا، بل إنّ هذه الإيماءات ستبقى ملازمة للغة ما دام الجسم مصدرَها؛ ولا سيما عند الذين يعانون من اضطرابات لغويّة وصعوبات في التحدّث. إنّ التفاعلات اللفظيّة بين المتخاطبين لا تكاد تخلو من نشاط التفاعلات غير اللفظيّة، ومنها الإيمائيّة كما أشارت إلى ذلك كاترين كربرات أوركيوني[56] (1943-...) Catherine Kerbrat-Orecchioni؛ بيد أنّ موضوع الإيماءات الذي يندرج في صميم سيميائيّات العالم الطبيعيّ ليس موضعه في هذه الدراسة؛ ولكن الإيماءات والإشارات تشارك الكلمات في التواصل والتفاعل الذي يكون الجسم من الرأس إلى القدمين ركحًا له. وهذا الجسم يعد واسطة العقد في

إدراك العالم، وللإيماءة ارتباط بثنائيّة الجسم والروح؛ ولكن في الوقت نفسه تدمّرها حتى تجعلنا نحافظ على تصوّرنا لوحدة العالم[57].

نُكرِّر ما تقدّم أنّ القصد هنا ليس الحفر في التاريخ؛ وإنّما المطلب يكون سيميائيًّا بالمعنى الأنطولوجيّ والمنطقيّ، والبحث في المرجعيّات؛ فإنّنا نتنكّب الخوض في نشأة اللّغة، وننصرف إلى المسائل التي تصبّ في مجرى سيميائيّات العالم وقضايا تتعلّق بإشكاليّة المرجع وارتباطها بمُتصوَّر الكلمة قبل أن تزيحها الفلسفة واللسانيّات من الاستعمال؛ لأنّ هذا المُتصوَّر اكتنفه، ويكتنفه الاشتباه؛ كما اشترك في تضليل العقول وسحرها؛ ممّا دفع الرسالة المنطقيّة-الفلسفيّة لخوض معركة لا هوادة فيها ضد التضليل والسحر التي تمارسه الكلمة على العقل. ظلت فلسفات الطبيعة وما بعدها تستفرد بدراسة موضوع العالم من حيث النشأة والتطوّر، ولا تلقي بالًا للغة من حيث إنّها كلمات وعلامات وإيماءات وإشارات، بل راح العلم يشكّك في صلاحيّة اللغات الطبيعيّة؛ لأنّ منطقها يحفّ به الاشتباه من كلّ جانب، ويطاوله الغموض الذي يأتيه من كلّ فجّ عميق، وسعى إلى استبدالها بلغات اصطناعيّة آتت بعض أكلها في علوم مخصوصة دون علوم أخرى. والذي لا يقبل الشك أنّنا لا نستطيع أن نتحدّث عن العالم من دون لغة، مهما كانت هذه اللّغة. وهذه الأطروحة غذّاها منذ زمن الإغريق مذهبُ كراتيل الذي نقلته لنا محاورة أفلاطون.

الكلمة والعلامة

بين العلامات والكلمات تداخلٌ لم يتسنّ له الانفصال إلّا مع أرسطو في فن الخطابة؛ إذ تجلّت الإرهاصات الأولى حول نظريّة العلامة في التفكير الغربيّ انطلاقًا من الكلمة، وليس من الملفوظ بخلاف ما عليه مدلول الكلمة في العربيّة كما سيأتي بيان ذلك. فظلّ أرسطو مترددًا في إحلال العلامة محل الكلمة في دراساته المنطقيّة[58]. ويرى روبار هنري روبنز (1921- 2000) Robert Henry Robins أنّ تعريف أرسطو للكلمة يماثل ما ذهب إليه أنطوان ميبه (1866- 1936) Antoine Meillet من أنّها عمليّة ((ارتباط معنى معين بمجموعة معينة من الأصوات لها القدرة على الاستخدام القواعدي))[59]. فالكلمة وعناصر الكلام هي رموز (sumbola) التمثيلات (pathêmata) الحاضرة في الذهن (psuchê). والمتتبّع لتاريخ العلامة يمكن أن يصوغ هذه الفرضيّة التي ترى أنّ الإنسان قد استعمل اليد أوّلًا في تواصله مع غيره قبل أن يستعمل اللسان، فكانت الإشارات والإيماءات والصور والرسومات أسبق من الكلمات. وإذا كنّا لا نجد ضيرًا في النظر إلى الإشارات والإيماءات على أنّها علامات، ((فحينئذ يتعيّن على القواميس وعلى اللّغة المثقّفة أن تعترف بأنّ الكلمات، أي الوحدات اللّغوية المستعملة في الكلام، هي أيضا علامات))[60]. ولهذا نلاحظ أنّ تاريخ الكلمة حافل بالسّجال، وما رسخت على أرضه قدم.

وذاك ما أشار إليه هيراقليطس (535 ق. م.- 475 ق. م.) Heraclitus في معرض حديثه عن ((السيّد، الذي يوجد وسيط وحيه في "دالفي" لا يقول ولا يواري، ولكنه يشير))[61]. ونعتقد أنّ الكلمات ظلت مهيمنة في التواصل على مُتصوَّر العلامة، فترسّخ الاعتقاد أنّ اللّغة أسماء دالة على الأشياء (المسمّيات)، ولكن هذه الأسماء لم تضطلع بالوظيفة المنوطة بها، وهي أن تطابق الواقع مطابقة كاملة، وهو مضمون ما ورد في محاورة كراتيل إنّ ((الطبيعة لا تمنح أيّ اسم علم لأيّ شيء. إنّها مسألة استعمال وعرف عند الذين تعوّدوا منح أسماء للأشياء))[62]، وألفينا السفسطائيّين يغالطون بحججهم الزائفة الحقائق، ويجعلون الإنسان مقياسًا لها.

كان بارمينيدس Parménídês من الفلاسفة الأوائل الذين وضعوا الثقة في مُتصوَّر العلامة أثناء العمليّات الاستدلاليّة، فالعلامات البارمينيدسيّة دلائل. في حين كان كراتيل وهيراقليطس يعتقدان أنّ الكلمات تنتج مباشرة من الأشياء، وعند أفلاطون فهي تمثّل طبيعة الأشياء التي تدلّ عليها على منوال الصور المرسومة[63]. ولا بد من الإشارة إلى أنّ الكتابة عند أفلاطون لم تكن لها منزلة رفيعة، وشايعه في هذا الرأي في العصر الحديث جون جاك روسو، وانتفض عليها جاك دريدا، فجعل من الكتابة علمًا.

طفقت نظريّة العلامة عند أفلاطون تستقرّ في أدبيّات التفكير الغربيّ انطلاقًا من الطبّ والمنطق، ومن مُتصوَّر اللوغوس (logos) أو مفهوم الملفوظ الذي يتألّف من هذه العلامات ((dêlôma, sêmeion) في التعبير الشفويّ (phônê)، وهي الاسم (ónoma) التي كانت في الأصل اسم علم (name) والفعل (rhêma) التي كانت تعني خبرًا؛ ولكنّ الاسم إذا نُطِقَ به مفردًا لا يغدو ملفوظًا/قولًا (saying)؛ وكذلك الشأن بالنسبة إلى الفعل الذي لا يلازمه الاسم في التركيب؛ وهكذا لا يغدو الاسم والفعل ملفوظًا/خطابًا (لوغوسًا) خارج التركيب، ويفضي ذلك إلى أنّ لا دلالة للّسان خارج إطار الجملة والقضيّة (العلامة والعالم).

لم تتبوأ العلامة مقعد صدق في سيميائيّات أرسطو إلّا بعد مشقّة، والتبست لديه بالكلمة والرمز؛ لأنّ الفكر الغربيّ كان يعتقد أنّ الفكر ينطلق من "الكلمة"، وليس من الملفوظ. ولأفلاطون دور لافت في المنطق الذي اكتملت أركانه أو كادت مع أرسطو؛ إذ أفاد منه في الملفوظ الموجب والسالب ومقدّمة القياس. ولا سيّما بعد أن بدأت الكلمة تُقسَّم إلى اسم (onoma) وفعل (rhêma) لغرض نحويّ ومنطقيّ وحجاجيّ، وأنّ عناصر الكلام (phônê) عند أرسطو هي العلامات (sumbola) التي هي رموز[64] بالمصطلحات المعاصرة؛ بيد أنّ الخطاب كونه ملفوظًا يمتلك قاسمًا مشتركًا مع الاسم والفعل وهي ملكة الدلالة (sêmainein). وهناك اختلاف بين الدلالة المُعجميّة ودلالة الخطابات والنصوص؛ ولهذا يتوافر اللوغوس عند أرسطو على طريقة مخصوصة في الدلالة تختلف عن الكلمات المفردة المعزولة عن التركيب. ولا تكون العلاقة بين العلامة والعالم ذات محتوى قضويّ ما لم تفد الإخبار، وتخضع للحكم سواء بالصدق أو بالكذب على عكس الملفوظ الإنشائيّ الذي لا يهم المنطق على الأقل في صورته الأرسطيّة.

كان أرسطو يعتقد أن "الفكرة" (noêma) محتوى معبّرٌ عنه سلفًا؛ ولكن الفكرة لا تتضمّن هنا أيّ حقيقة، فهي بخلاف العلامة، ولا يتلبّسها أيّ خطأ؛ وعليه فإنّ الكلمة أو العلامة أو الرمز لمّا ترتق إلى منزلة الخبر التي يمكننا الحكم عليها بالصدق أو الكذب لخلوّها من الإسناد، والملفوظ وحده يستحق أن يكون قضيّة لكونه قادرًا أن يوجد في الكلام الخارجيّ كما يوجد في عالم الذهن. والملاحظ أنّ مفهوم الملفوظ/الخطاب (logos) عموميّ وغامض يتغيّر معناه من مجال الخطاب المنطقيّ إلى مجال الخطاب الأدبيّ؛ إذ الخطاب وحده عند أرسطو[65] بالمفهوم التداوليّ المعاصر قادر على الإخبار والتقرير والتوكيد (kataphasis) والنفي (apophasis) والاستعطاف (euchê).

لقد نتج عن النقاش الفلسفيّ الخاص بعلاقة اللّغة بالفكر والواقع سؤال فحواه: أيمكن أن تعدّ المفاهيم كلمات؟ وإلى أيّ مدى تمتلك الكلمات القدرة على تمثيل الحقيقة وحملها؟ أتطابق كلماتنا الواقع الذي تعبّر عنه؟ هذه الأسئلة وغيرها دفعت "الكلمة" إلى واجهة النقاش على ركح فلسفة اللّغة قبل أن تتزعزع الثقة فيها

من قبل فلسفة اللسانيّات وفلسفة التحليل وتحديدًا مِعْوَل لودفيغ فيتغنشتاين (1889- 1951) Ludwig Wittgenstein على فتنة الكلمات.

إنّ أصوات اللّغة عند أرسطو ((الصادرة عن النطق هي رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز لهذه الكلمات الصادرة عن النطق))[66]. إنّ هذا التعريف الذي يجعل اللّغة ألفاظًا دالّة على المعاني (الأفكار) الداخليّة في النفس قد لا يتّسم بالكمال؛ لأنّه لا يشمل الألسن البشريّة جميعها؛ ولكن يضع للكلمات حضورًا لأنّها ستسهم في دفع المنطق الأرسطيّ إلى أحضان الشكلنة عن الرسم الخطيّ. وعندما تكون الكلمات سليلة الإرث المجيد للكتابة؛ فهذا لا يعني سوى أنّها تمثيل للغة، وهو ما كان يرومه أرسطو، ومجّده جاك دريدا في علم الكتابة (grammatologie) على الرغم من التهميش الذي تعرضت له من قبل اللسانيّات الحديثة، وجعلتها فقط نسقًا سيميائيًّا ثانويًّا قياسًا إلى النسق اللسانيّ الذي منحته صفة الامتياز.

ظلّ التصوّر الأرسطيّ ردحًا من الزمن يفرض حضوره في فلسفة اللّغة والسيميائيّات، وبات "المعنى النفسيّ" ملازمًا لمُتصوَّر العلامة في بعدها الثلاثيّ (الصوت وحالة النفس وصورة الأشياء). وإذا شئنا أن نترجم هذا التصور بما نحن بصدده قلنا إنّ العلامة تمثّل داخليّ، والعالم ظهور حسيّ، ولم يقتصر تعريف أرسطو للغة على الأصوات المنطوقة؛ وإنّما ذكر أنّ الحرف بدوره دالّ على اللفظ؛ ولهذا قدرنا أنّ حضور عنصر الخطّ في السيميائيّات الإسلاميّة كان بتأثير أرسطو من وجهة، وبالمرجعيّة الإسلاميّة التي أولت الكتابة منزلة رفيعة. ولعلّ من أبرزها تدوين الوحي، ولاحقًا الحديث النبوي الشريف والنصوص الأدبيّة.

وبالعودة إلى مفهوم "صورة الشيء" يجعلنا نستدعي موضوع الإدراك الحسيّ الذي صار مدخلًا من مداخل العلوم المعرفيّة، وكيف ترتسم صورة الشيء في الذهن، وللشيء مادة وشكل. وأنّ هذا الشكل لا يدركه إلّا العقل عندما ترتسم صورة الشيء في الذهن. ومنها تتشكّل الفكرة. وهذه سيرورة نفسيّة ستدفع دو سوسير ليقرر أنّ كيان العلامة اللسانيّة نفسيٌّ يتألف من دال ومدلول، ومن تعبير ومحتوى في مصطلحات لويس يامسلاف[67] (1899- 1965) Louis Hjelmslev، وهما متضايفان.

صارت اللّغة كما لاحظنا سابقًا في فلسفة أرسطو تعبير عن المعاني النفسيّة في داخل الإنسان، وفسّر تعدد الألفاظ والحروف عند الأمم بفكرة المواضعة والعرف. وهذا أساس التمييز بين أصوات الإنسان وأصوات الحيوان، حتى وإن كان صوت الحيوان يعبّر عن حالة نفسيّة داخليّة جعلت لاحقًا السيميائيّات الحيوانيّة تلتفت إلى دراسة أشكال الاتصال عند الحيوانات وبخاصة عند النحل والقرود. وقد حدّثنا القرآن الكريم عن تعلّم الإنسان من الحيوان مثل الغراب الذي علّم هابيل كيف يواري سوأة أخيه في التراب. وقد صنّف توماس الإكويني (1225- 1274) Thomas d'Aquin أصوات الحيوانات في فئة العلامات الطبيعيّة.

ظلّ مفهوم "المعنى النفسيّ" الدال على الفكرة غامضًا، وليس على درجة من الوضوح المطلوب؛ إذ يختلف عن الكلمة من حيث هي صور وأيقونات للعالم. وقد قاد أرسطو هذا التمييز بين الكلمة والمعنى النفسيّ بطريقة يصفها إيكو بالعفويّة إلى ((أن الكلمات والحروف هي بلا شك وقبل كل شيء "سيميا" أي علامات (σημεία) للمعاني التي في النفس))[68]. ولا شيء يؤكد صفاء التصور الأرسطيّ بين الكلمات والعلامات والرموز، وكان استعماله لهذه المصطلحات أقرب إلى العموميّة منه إلى دقة الخصوصيّة الاصطلاحيّة، ولم يتجلّ هذا الصفاء

إلّا في فن الخطابة الذي اهتدى به إلى المطلوب من دون ارتباك.

اللكتون الرواقيّ

لا يخفى على الحاذق أنّ التراث الفلسفيّ الرواقيّ أسهم إسهامًا نوعيًّا في تطوير الدرس اللغويّ، ووضع قواعد متينة للسيميائيّات، ووضّحوا ما استشكل من التصنيف الأرسطيّ للكلمة وأقسامها. والظاهر أنّ الرواقيّين طوّروا نظرتهم لأقسام الكلمة، فاتّبعوا ثلاث خطوات ساروا على منوالها[69]. فالخطوة الأولى فصلت فيها معا الأجزاء المتصرّفة (الضمير والأداة فيما بعد) على أنّها "أرثرا" àrthron (ἁρθρα) عن الأجزاء الجامدة غير المتصرفة التي اصطنع لها مصطلح سندسموس syndesmos (حروف الجر والروابط فيما بعد)، والخطو الثانية انقسمت كلمة "أونوما ónoma " الأرسطيّة، وصارت اسم العلم nom propre الذي صِيغ له مصطلح ónoma والاسم العام (προσηγορία proségoria).

أمّا الخطوة الثالثة والأخيرة: ((قد انفصل عما سبق نوع الظروف، وأطلق عليها μεσότης mesótés)، وتعني حرفيا «هذه التي في الوسط» وربما كان هذا بسبب انتمائها نحويا للأفعال، ولكنها تكون غالبا مرتبطة صرفيا بسيقان stems الأسماء))[70]. وهذا التقسيم يدلّ على أنّ الرواقيّين استثمروا التراث اللغويّ والفلسفيّ لمن سبقهم سواء لدى فلاسفة ما قبل سقراط أو ما بعده، وكنا ذكرنا سالفًا بعضهم مثل: بارمينيدس وهراقليطس والسفسطائيّين؛ ولكنهم أولوا اعتناء عامًا باللغة، واعتناء خاصًا بالكلمة، فتركوا بصمة واضحة في ((الدراسات اللغوية، داخل إطار المجال شديد الاتساع للفلوسفيا philosophia))[71]. وسيكون لهذا الاعتناء ثمرات تتجلّى في الدرس الدلاليّ والمنطقيّ، وحتّى الدرس اللغويّ الصرف ولا سيما الدراسة الصوتيّة المتعلقة بحروف اللغة الإغريقيّة. ((فالحروف γραμματα grámmata) عرفت بوصفها عناصر στοιχεία stoicheia)، وهو مصطلح رهن الاستعمال بالفعل يدل على المكونات النهائية للعالم الطبيعي))[72]. وكما أسلفنا القول فإنّ مقام الكلمة في الدراسات اللغويّة الإغريقيّة كانت تنطلق من رؤية سيميائيّة للعالم الطبيعيّ.

أعاد الرواقيّون صوغ النظريّة الأرسطيّة حول العلامة بناء على مفهوم "الكلمة"، وحصروها في المثلث السيميائيّ الشهير: الدال من حيث هو متواليّة صوتيّة (sêmainon) والمدلول الواقعيّ (sêmainomenon) والمرجع الواقعيّ (tunchanon)، ويمثّل الموضوع الواقعيّ الخارجيّ:

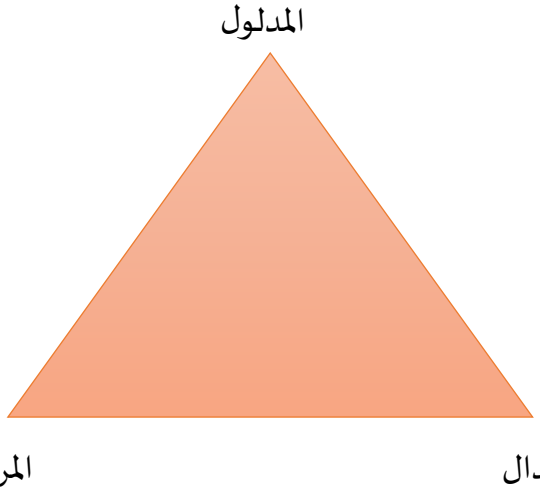

والعلامة نُظِر إليها عند الرواقيّين على أنّها ((قضية تتكوّن من رابط صحيح، وكاشفة عن رابط سابق))[73]. وهذا التصوّر سيكون له امتداد في السيميائيّات الحديثة.

واللافت أنّهم ميّزوا بين مكونات المثلث السيميائيّ المتمثّل في الشيء الواقعيّ والتمثل النفسيّ والمقول lekton؛ ولكنهم حصروا المدلول في المقول، والمرجع في المادّة. فالتمثل النفسيّ لا يتجسد إلا عبر الخطاب[74] أو ما يعبر عنه بوساطة اللّغة؛ لأنّه يحصل للمستمع منه فهم الشيء؛ وهكذا يتجلى التمثيل النفسيّ لصنف من الأشياء في مقاربتنا له. لا يكاد ينفصل مفهوم المدلول عن عالم الدلالة؛ لأنّه يرتبط بالاستعمال الذي يصطنعه مستخدم العلامة، ويدعونا فيتغنشتاين أن نتعلّم الدلالة من الاستعمال[75]؛ فهو يتجاوز حدود حصره في الواقع أو أن يكون تعبيرا عن حالة الوعي وفعله. إنّه يمثل حسَب دو سوسير الوجه الثاني للعلامة الذي لا يكتمل بالوجه الآخر المتمثل في الدال الذي يعد وسيطا للمدلول مثله مثل الورقة النقديّة.

أفاد الرواقيّون من الأطاريح الأفلاطونيّة والأرسطيّة ليبلوروا المفهوم الثلاثيّ للعلامة، وتفردوا بمصطلح lekton من حيث هو قول له قصد، أو ما يمكن أن يعبّر عنه، وهو عندهم ليس بجسم؛ لأنّ كلّ شيء عندهم جسمٌ ((ووحدها الأجسام هي أسباب، أو هي تستجيب لفعل الأسباب، فما لا جسم له لا يمكنه أن يفعل أو أن يخضع لفعل، هو ليس بموجود))[76]. والطريف أنّ الرواقيّين ميزوا بين اسم الجنس من حيث إنّه لا يختصّ بفرد دون آخر، واسم العلم الذي يختصّ بواحد دون غيره من أفراد جنسه. وقد يساعد على إحداث استقلال في الأنطولوجيا الذاتيّة؛ بيد أنّ الأنطولوجيا أقرب إلى نسق اللّغة منها إلى الأسس الكبرى للميتافيزيقا.

وضع الرواقيّون ضوابط للاستدلال السليم علمًا أنّ المحتوى عندهم هو شيء غير ماديّ بما في ذلك القول لكونه يغدو عبارة إسناديّة (قضيّة). وأمّا العلامة التي يتمخّض منها الاستدلال كما تصوّرها أمبيريكوس فهي ((ليست الحدث الماديّ؛ وإنّما هي القضيّة التي يعبرّ بها عنه. فالعلامة هي "المقدم في فرضيّة كبرى صحيحة تسمح بكشف التالي ... أي مقدّم صادق في قضيّة شرطيّة صادقة يتسنّى معها كشف التالي...))[77]. إنّ تجريدهم للعلامة من الشيء الماديّ والاكتفاء بأنّها "قول" نخمّن بأنّه قد شجّع دو سوسير على مبدأ المحايثة وإبعاد المرجع من مفهوم العلامة اللسانيّة، وسار على منواله يامسلاف وإريك بويسنس (1910- 2000) Éric Buyssens ولفيف من البُنويّين.

الكلمة والكلام في التفكير الإسلاميّ

للكلمة في العربيّة ثلاث لغات: كَلِمَةٌ وكِلْمَةٌ وكَلْمَةٌ، وهي "قول مفرد"، و"لفظ وضع لمعنى مفرد مفيد بالوضع"، والمقصود بالقول اللفظ الدّال على معنى، وأقلّها حرف واحد مثل همزة الاستفهام أو بعض حروف العطف (الباء والفاء والكاف) أو تاء أو نون الفاعل أو أفعال الأمر في اللفيف المفروق مثل: عِ أو قِ، والمقصود بالمفرد ما لا يدلّ جزؤه على جزء معناه، وبالمقصود بالإفادة ما حسُن السكوت عليه، وجمعها "كَلِم" و"كلمات"، وأمّا الكلام فهو اسم جنس يشمل القليل والكثير. وأقسام الكلمة: "اسم وفعل وحرف"، وهي "جمل مفيدة" كأن تكون قصيدة أو خطبة، كما وردت في قوله تعالى: }كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها...{ [المؤمنون: 100] جوابً عن قوله تعالى: }رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحًا... {[المؤمنون: 99]. وكلمة الله: حُكمُه وإرادته }وكلمة الله هي العليا...{ [التوبة: 40]. والكلام مخبوء في الفؤاد، وجعل اللسان دليلًا عليه أو كما قال الشاعر.

إنّ العربيّة واحدة من هذه اللغات الغنيّة بمفرداتها، العريقة بماضيها وجذورها وآثارها وذخائرها وحاضرها المتراوح بين الحيويّة والخمول، بين القوّة والضعف، وهي من اللغات المعربة. تتألّف بينة الكلمة من نكاح الأصوات بمعنى ضمّ الحروف بعضها ببعض، فمنها الصوامت (الحروف) التي تكون ساكنة، ولا يُنطَق بها إلّا إذا دخلت عليها الحركات أو الحروف الليّنة. و((زعم الخليل أنّ الفتحة والكسرة والضمّة، وهنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلّم بها))[78]. والحركات في عرف النحاة حروف ((أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف فكذلك الحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمة. فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة))[79]. لقد اعتنى علماء العربيّة بموضوع الكلمة الذي شمل جوانبها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والمعجميّة كغيرهم من علماء اللغات.

ورد في تعريفات الجرجانيّ العرفانيّ أنّ الكلمة عند أصحاب الحق هي ((ما يكنى به عن كل واحدة من الماهيات والأعيان بالكلمة المعنوية، والغيبية، والخارجية بالكلمة الوجودية، والمجردات بالمفارقات))[80]. وترتّب على دراسة الكلام في الفكر الإسلاميّ ظهور علم مستجد عُرف بعلم الكلام، وكان الغرض من نشأته إثبات العقائد ودفع الشبهات عن حياضها، وموضوع الكلام ((هو المعلوم من حيث يتعلّق به إثبات العقائد تعلُّقًا قريبًا أو بعيدًا، وقيل هو: ذات الله تعالى إذ يبحث فيه عن صفاته وأفعاله))[81]. ويتأتى شرف علم الكلام من ((ذات الباري وصفاته))[82]، وانطلاقًا من شرف الذود عن ذات الله وصفاته وأفعاله نشأ علم الكلام.

وقد فصّل الحديث في الفرق الإسلاميّة مثل الأشعريّ (260 هـ - 324 هـ) والبغداديّ (ت 429 هـ) والشهرستانيّ (479 هـ- 548 هـ) وابن حزم (384 هـ- 456 هـ)، ولعلّ من أنسب الموضوعات لما نحن بصدده مسألة خلق الله للعالم، ومن أخطرها خلق القرآن من دون التوسّع في الحديث عن هذه المسائل التي ليس هذا مقام بسطها، وتقدّم أن نبّهنا على التحلّي باليقظة المنهجيّة منعًا للانجرار في القضايا الميتافيزيقيّة. فهناك أنواع عديدة من العوالم في الفكر الإسلاميّ، ومن أشهرها: عالم الدنيا الذي خلق من العدم، وحَدَثَ في الماضي، وعالم الآخرة الذي سيتم يوم البعث والنشر أو يوم القيامة. وهذا العوالم مصونة من قِبَل خالقها، وعالم الأفعال الإنسانيّة القائم على الحريّة والاختيار.

أفاض علماء الكلام في تناول قدم الموجودات ومحدثاتها "قديم لم يزل، ومحدث لوجوده أوّل"، وأمّا المحدث فجسم مؤلف وجوهر مفرد وعرض موجود بالأجسام والأعراض"، والأجسام عند النظّام ((ضربان: حي وميت، وأنّ الحيّ منها يستحيل أن يصير ميتًا، وإنّ الميت يستحيل أن يصير حيّا))[83]. إنّ هذه المسائل وغيرها تفسّح فيها علماء الكلام، واختلفوا حولها، ونال "العالم" حظًّا أوفر من الدرس. لقد كان الطابع الأنطولوجيّ والدينيّ في تفكير المعتزلة يصنِّف الوجود إلى قديم ومحدث كما تقدّم، ويمكن تصنيفه في دائرة العلامة والعالم؛ إذ وجود العالم دال على وجود الخالق الكامل والمنزّه، والعالم كونه جسمًا متحرّكًا أو ساكنًا، ويطاوله الفساد؛ ولهذا كان العالم في تصوّر المتكلّمين "كلّ ما سوى الله"؛ وبدا ابن رشد الحفيد (520 هـ-595 هـ) أحرص عن تنزيه الله من علماء الكلام الذين ((جعلوا الإله إنسانًا أزليًّا))[84].

وجاء بعض ذلك في باب التوحيد للقاضي عبد الجبار (359 هـ- 415 هـ) إلى جانب مسائل العدل والوعد

والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي علم الكلام تعويل على العلامات المخصوصة التي تبرهن على وجود الله، وأنّ ما في العالم أجسامًا بما فيها الأعراض وهي أجسام لطيفة مثلما أخذ أبو إسحاق بن إبراهيم بن سيّار النظّام عن هشام بن الحكم قوله بأنّ: ((الألوان والطعوم والروائح والأصوات أجسامٌ))[85]، وهي مختلفة ومتداخلة[86]؛ ولكن نُظِر إلى الكلام على أنّه من أفعال الإنسان التي هي حركات. وأنّ الصوت عنده ((لا يُسمع إلّا بهجومه على الروح من جهة السمع، ولا يجوز أن يهجم من قطعة واحدة على سمعين متباينين))[87]؛ ولهذا أنكر أن يكون اثنان سمع صوتًا واحدًا في الأرض؛ وإنّما سمع "جنسًا واحدًا من الصوت". وحجّته في ذلك على نحو ما يبيّنه نقد البغداديّ: ((أن مسموع كل واحد من السامعين جنسٌ من صوت المتكلم بالكلمة الواحدة ربما كانت من حرفين، وبعض الحرفين لا يكون كلمة عنده، وإن زعم أنّ الصوت لا يكون كلاما مسموعا إلا إذا كان من حروف لزمه أن يسمع الجماعة حرفا واحدا؛ لأنّ الحرف الواحد لا ينقسم حروفا كثيرة على عدد السامعين))[88]. وهذا يتناغم مع فكرة أنّ علامة الإنسان روح، وليست بجسد، وهو موضوع للإدراك العقليّ لا الحسيّ. وفي نص البغداديّ تداخل بين الصوت والحرف، وقوامهما الكلمة.

بما أنّ الأجسام من خلق الله، فإنّ الأفعال صنيع الإنسان في نظر النظّام. ومنها الكلام الذي هو عبارة عن حركة، و((جسم لطيف منبعث من المتكلم، ويقرع أجزاء الهوى فيتموج الهوى بحركته ويتشكل بشكله ثم يقرع العصب المفروش في الأذن فيتشكل العصب بشكله ثمّ يصل إلى الخيال فيعرض على الفكر العقلي فيفهم))[89].

وقد ميّز المعتزلة بين كلام الله وكلام البشر، فكلام الله من الأجسام، وكلام البشر من الأعراض. وذكر الأشعريّ قول بعض المعتزلة في كلام الله أنّه ((جسم صوت مقطّع مؤلف مسموع، وهو فعل الله وخلقه))[90]؛ ولكنه بلا حركة.

نقف عند الفضيحة الخامسة التي ذكرها البغداديّ وهو يشنّع على أبي الهذيل العلّاف، وتتمثّل في تقسم كلام الله عزّ وجلّ ((إلى ما يحتاج إلى محل، وإلى ما لا يحتاج إلى محل...وكل كلامه عنده أعراض...وجود كلمة لا في مَحَلّ يوجب أن لا يكون بعض المتكلمين أولى بأن يتكلم بها من بعض؛ وليس لأبي الهذيل أن يقول: إنّ فاعلها أولى بأن يتكلم بها من غيره؛ لأنّه قد قال بأن الله تعالى يخلق في الآخرة كلام أهل الجنّة وكلام أهل النّار، ولا يكون متكلّمًا بكلامهم، فقد أداه بوجود كلمة لا في محل إلى تصحيح كلام لا لمتكلم، وهذا محال، فما يؤدي إليه مثله))[91]. وكل ذلك تعليق على تأويله لقول الله تعالى للشي "كن" على أنّه من جنس كلام الإنسان؛ ولهذا أنكر النظّام إعجاز القرآن في نظمه[92].

المنعطف البنويّ الشكلانيّ: الكلمة والجملة

على الرغم من أنّ العلامة حجزت مكانها الدائم في اللّسانيّات والسيميائيّات الحديثة، وصارت مصطلحًا يكاد يكون راسخًا في هذه الدراسات؛ فإنّ الاستعمال العام السائد في التعليم والكتابات غير الأكاديميّة ما زال يعتقد أنّ الكلمة ركن من أركان اللغة، وعليها مدار الدلالة، وأنّ أمر الدلالة قائم على المعنى. وقد ذكر دو سوسير في القسم الثاني من المحاضرات في اللسانيّات العامة الموسوم باللسانيّات الآنيّة، وهو يتحدّث عن الكيانات الملموسة للّسان، وينفي أن تكون العلامات كيانات مجرّدة، بل هي موضوعات وحقائق لها مقعدها في المخ[93]. ولا وجود للسان بوصفه كيانًا إلّا بتضايف الدال والمدلول، وهو يريد أن يتجاوز ثنائيّة الكلمة والفكرة، وبيان

طريقة تعيين حدود الوحدات، ويشكّك مع المشكّكين في أن تكون الكلمة "وحدة لغويّة".

من الصعوبات الإجرائيّة التي واجهت دو سوسير في محاضراته إن صحّ سندها، وثبُت متنها، أنّه حاول أن يجدَ لها حلولًا، ويجيب عن سؤال ما إذا كانت الوحدات المقصودة بالتقطيع اللّسانيّ هي الكلمات من منطلق أنّ ((الجملة ما هي إلّا عبارة عن توليف عدد من الكلمات))[94]؛ لأنّ الاعتقاد الثابت عند النّاس أنّ أسرع ما ندركه مباشرة هو الكلمات. ومن هنا تتأتى صعوبة تعريف الكلمة وتعيين حدودها في السلسلة الكلاميّة، واختلاف الدارسين في تحديدها، وهو بذلك يؤكّد إجرائيّة العلامات، وقابليّتها إلى التقطيع. وتبعًا لذلك هو تجاوز البحث في العلاقة بين الكلمة والفكرة أو الشي، إلى العلاقة بين الصوت والمعنى، وبناء على الأمثلة التي ساقها رأى أنّ الحصول على الوحدة الملموسة يقع خارج "إطار الكلمة[95]"، وقدّم أمثلة على ذلك كنّا سقناها في الأسماء المركبة في العربيّة.

لا يمكن الحديث عن الكلمة والوحدات الملموسة دون استدعاء مُتصوَّر الجملة؛ لأنّ الكلام لا يحصل إلّا بالجمل، ومنها تُستخرج الكلمات، وكان دو سوسير يُشكِّك في المفاهيم النحويّة القديمة وصلاحيّتها في تحليل الظاهرة اللسانيّة، ومنها تساؤله الاستنكاريّ ما إذا كانت "الجملة تابعة للغة"[96]. ومنهج دو سوسير في دراسته للظاهرة اللغويّة يميل إلى ما هو ثابت مثل اللّسان في مقابل الكلام، ويرى أنّ الجمل على درجة غير قليلة من التنوّع والاختلاف. وعلى الرغم من ذلك فإنّ اللغة بوصفها مؤسسة سيميائيّة (سيميولوجيّة) لا تنكر وجود هذه الكيانات (الكلمة والجملة مثلًا). فثمّة مشكلات عويصة تنجم عن وضع الكلمة وتعيين حدودها في نسق الكلام من الجانب الصرفيّ، ومن الأمثلة تصريف فعل ذهب في الفرنسيّة (aller) اللغة، (al/ler – وفي الحاضر (a)Ir) –v/(ais/ والسؤال الذي يمكن طرحه هل تعود هذه الصيغ جميعها إلى جذر الكلمة نفسها على الرغم من تباين خصائصها الصرفيّة؟

سبق القول إنّه لا سبيل إلى إدراك الكيانات الملموسة أو الوحدات اللغويّة على نحو مباشر؛ فإنّ دو سوسير سيلجأ إلى الكلمات لتقديم حلول لهذه القضيّة؛ ولكن على سبيل لدحض. فالكلمات ((وإن لم يطابق تعريفها تعريف الوحدة اللسانيّة بالضبط (ينظر ص. 147) توفر لنا عنها -على الأقل- صورة تقريبيّة من مزاياها أنّها صورة ملموسة. ولهذا سنأخذ الكلمات على أنّها عيّنات تكافئ العناصر الحقيقيّة التابعة لنسق آنيّ، والمبادئ المستخلصة من الكلمات نعدّه سليمًا، وصالحًا للكيانات على العموم))[97]. وهكذا يدحض دو سوسير مُتصوَّر الكلمة دحضًا ناعمًا، وسيستبدلها بمُتصوَّر العلامة؛ غير أنّنا نرى تنيير لا يمضي في هذا الإبدال الإبستيميّ الأمر الذي دفع الدارسين إلى التساؤل عمّا إذا كان عمل تنيير ينطبق عليه المفهوم البنويّ للتركيب؟ بخلاف ألجيرداس جوليان گريماص (1917- 1992) A. J. Greimas الذي سيدعّم الموقف السوسيريّ، ويضرب صفحًا عن الكلمة، وبَخَس حقها في المعجم.

وعلى نحو ما تقدّم ألفينا علماء العربيّة يتعاملون معها على أنّها وحدة صوتيّة، وهي من الناحية الفلسفيّة وحدة وظيفيّة مجرّدة، كما هي وحدة دلاليّة من الناحية اللغويّة. ولكنّ هذا التصوّر لا يتّسق مع الإبدال الذي أحدثته اللسانيّات البنويّة على الرغم من أنّ تنيير[98] تناول في الكتاب الأوّل من "عناصر التركيب البنويّ" الذي شرع في تأليفه عام 1950، وانتهى منه عام 1956- البنية والشكل والوظيفة والمعنى وأنواع الكلمات وأنواع

الجمل. وما يعنينا هو القسم الخاص بأنواع الكلمات لا بسؤال ميشال آريفيه[99] (1936- 2017) Michel Arrivé : أيعدّ تركيب تنيير بُنويًّا أو تحويليًّا؟ والملاحظ أنّ آريفيه لم يأت على ذكر مُتصوَّر "الكلمة" في أثناء عرضه لمفهوم التركيب عند تنيير. ولعلّ مردّ اعتنائه بالكلمة فضلًا على أنّها أساس الجملة يرجع كذلك إلى دراساته المعجميّة وتخصّصه في اللغات الألمانيّة والسلافيّة (ودراسته لمعجم اللغة الروسيّة)، وكان يسير على خطى أستاذه أ. ميبه، وكذلك بحوثه في اللسانيّات الجغرافيّة.

انصرف تنيير إلى دراسة طرائق بناء التركيب بغية الوقوف على بينة الملفوظ في اللغة، وابتدع لنفسه طريقة مخصوصة في تأسيس تركيب عام ليحدّد مبادئ الجملة على صعيد البنية والوظيفة وتحليل قواعدها، واختلف طرحه عمن تقدّمه، وعمن جايله. وكان للكلمة حظها الأوفر في هذه الدراسة التي لم تكن بنويّة شكلانيّة خالصة؛ بيد أنّ ما يميّز منهج تنيير أنّه تجاوز تحليل الجملة كما هو شائع في النحو التقليديّ، وطبّق التحليل البنويّ القائم على التشجير (stemma) في القسم الأوّل من كتابه. إنّ ((مركز التفكير التركيبيّ عند تنيير هو المفهوم الذي عيّن تعينًا دقيقًا عن طريق مصطلح فئات الكلمات))[100]. ومن المعلوم أنّ التركيب يدرس أقسام الكلام، وهو تقليد قديم في الدراسات النحويّة يعيّن الكلمة داخل السلسلة النظميّة، ويقتضي حضور الذات أثناء فعل التلفظ، ويدلّ أيضا على ما يقع في محور الاستبدال، والكلمة ها هنا وحدة لغويّة مجرّدة.

ومن مبادئ الربط في بناء الجملة من منظور تنيير هو ((بعث الحياة في كتلة الكلمات عديمة الشكل عن طريقة إقامة مجموعة من الروابط فيما بينها))[101]. وقدّم في دراسته ترسيمات للروابط بين الكلمات عمّا أسماه بسمات الربط[102] (traits de connexion)، ويمكن للكلمة أن تكون في تراتبيّة الربط ((تابعة في الوقت نفسه لكلمة أعلى والتحكم في الكلمة الأدنى))[103]. والملاحظ أنّ مصطلح الكلمة حاضرة حضورًا لافتًا في القسم الأول في كتاب مبادئ التركيب البنويّ، ويكون الفعل هو النواة في الجملة. وتكون للذات المتكلّمة الحريّة في اختيار الكلمات التي تعبّر عن أفكاره[104].

يخضع الترتيب البنويّ للكلمات في أطروحة تنيير إلى الروابط القائمة بينها في الجملة[105]. وحتى في السلسلة المنطوقة يسمح الترتيب الخطيّ بانتظام الكلمات في هذه السلسلة. وما يربط بين كلمتين أو أكثر يشكّل في أدبيّات تنيير مصطلح "المقطع"، وهو يساعد في تحليل بينة الجملة وفهمها. علمًا أنّ تنيير لم يقدّم تعريفًا دقيقًا وواضحًا للمُتصوَّر البنية، وإن كان من باب تحصيل الحاصل التسليم بأن" التركيب ذو طبيعة بُنويّة[106]. ولم يكتف تنيير بالأمثلة المعياريّة، بل كان يستشهد بنصوص أدبيّة[107] من فكتور هيغو وبوسيت (Bossuet) والكاتب الألمانيّ كرستيان هانريش هاينه (Heinrich Heine Christian).

أشار إلى ما يسببه مفهوم الكلمة من حرج في التعريف الحسّاس للكلمة بالنسبة إلى عالم اللسان، واستشهد بالعالم اللغويّ جوزيف فندريس (1875- 1960) Joseph Vendryes؛ ولكنه طرح مسألة في غاية الطرافة؛ إذ جرت العادة في التحليل النحويّ التقليديّ ذي النزعة الذريّة البدء بالكلمة والوصول إلى الجملة، وهو يتساءل لماذا لا ننطلق من الجملة التي هي دراما صغرى لدراسة الكلمة؛ لأنّ الجملة من الناحية المنطقيّة سابقة على الكلمة[108]، وقد خصّص تنيير الفصل العاشر من القسم الأول لمُتصوَّر الكلمة، وهو يميّز بين الكلمة والنواة (nucléus)، وكان مفهوم النواة[109] منطلق التحليل البنويّ عند تنيير أكثر من مفهوم العروة (nœud).

وقف تنيير في الفصل السابع والعشرين من القسم الأوّل على أنواع الكلمات التقليديّة، وذكر أقسام الكلمة كما تقدّم ذكره، وحصر عدد في عشرة أنواع ضمن ما يُعرف بأقسام الكلام التي نلفيها في اللغات الطبيعيّة جميعها (أداة التعريف والاسم والنعت والضمير والفعل والمصدر واسم الفاعل "participe" والظرف والحرف والعطف والتعجب)[110]. وصنّف الكلمات إلى صنف له وظيفة دلاليّة وهو الكلمات المُشبَعة، وصنف ليس له وظيفة دلاليّة، ويسمّيه "الكلمات المُفرّغة"[111]. وبهذا التصنيف ينتقل تنيير إلى ربط الكلمات بالدلالة.

والملاحظ أن الكلمات المُشبَعة هي التي تستطيع التعبير عن الأفكار، ولها القدرة على تمثيل إدراك العالم، ويتفاوت إدراك العالم بين الخصوص والعموم حسَب طبيعة هذه الكلمات، وهذا يعزز ما أشرنا إليه من أنّ بنويّة تنيير ليست شكلانيّة، بل هي دلاليّة أيضًا؛ لأنّها تتحدث عن بينة اللغة ووظيفتها في آن واحد، وقد يكون هذا من الأسباب التي لم تساعد على شهرته الواسعة في عصر أفرط في تبجيل البنويّة باستثناء استعارة گريماص لبعض مصطلحاته في الدلاليّات البنويّة والنظريّة العامليّة التي أخذت على عاتقها دراسة شكل المحتوى، ووجدت في مُتصوَّر العامل[112] دفعًا للانتقال من حدود الجملة إلى مُتّسع الملفوظ، ومن ضيق البُنويّة الشكلانيّة إلى رحابة السيميائيّات البُنويّة.

أعطى تنيير الأولويّة للجملة على الكلمة، وارتأى أنّنا لكي نفهم الكلمات لا بد من فهم الجمل التي صيغت فيها هذه الكلمات. ولاحظ أنّ هناك صنفًا من الكلمات ترتقي إلى "الكلمات-الجمل" (mots-phrases) ومنها صيغ التعجب أو بمجرد التعبير عن الألم فهو يكافئ جملة كاملة[113]، ولاحظ أنّه من الصعوبة بمكان تصنيفها بُنويًّا.

إنّ التركيب البُنويّ الذي أنجزه تنيير يعدّ علامة فارقة في تحليل بنية اللغة التي حصرها في بنية تركيب الجملة ووظيفتها، ولم يُلْتَفت إلى بحوثه في إبّانها شأنها شأن بحوث إيميل بنفينست (1902- 1976) Émile Benveniste النظر إليها في زمنها، وبقي في الظلّ ردحًا من الزمن؛ على الرغم من أنّه كان على تواصل مع مؤسسيْ حلقة براغ نيكولاي تروبتوزكوي (1890- 1938) Troubetskoï Nikolaï ورومان ياكبسون (1896- 1982) Roman Jakobson.

كان لموضوع تركيب الجملة وبنية الكلمة لتنيير الأثر المحمود ولعقود من الزمن في البحوث اللسانيّة التي استثمرت أطروحته في "التركيب البُنويّ" ومصطلحاته القديمة والجديدة (الكلمة والجملة وعروة الفعل والنظير "valence" والعامل...إلخ)، ثمّ التركيز على مكوني الجملة من منظور الإسناد (المسند والمسند إليه)، وتحوّلت هذه الأطروحة إلى تطبيقات عمليّة[114] في التربيّة[115] (دراسة اللغة الألمانيّة) والمعالجة الآليّة للغة خدمة للترجمة، وكان بوتييه قد أسهم في التحليل الدلاليّ والترجمة الآليّة[116].

حدث تحوّل لافت في الدراسات اللسانيّة البنويّة في تركيز على اللغة المنطوقة وعلى أصواتها؛ نظرًا لبعث الأخطاء الجسيمة التي وقعت في الدراسات اللغويّة التي طبّقت المنهج التاريخيّ والمقارن. وكان لهذا الانعطاف البنويّ تأثير ملموس في البحوث المعجميّة التي أثمرت نتائجه حتى في الدراسات الأنثروبولوجيّة والاجتماعيّة؛ وفي السيميائيّات وتحليل الخطاب؛ لأنّ المعجم يعدّ أداة لتعيين المرجع الذي تحيل عليه الكلمات، وهو العالم الخارجيّ. وهذا المرجع قد أحدث مشكلًا عويصًا للدراسات السيميائيّة التي تحصّنت منهجيًّا بالسياج البنويّ؛ ولا غرو أن نراها ترفض المقاربات السياقيّة سواء أكانت تاريخيّة أم اجتماعيّة أم نفسيّة أم أنطولوجيّة.

هناك أطروحة تسلّم بقدرة الكلمات على فرض بعض تصوّراتها للعالم على المتكلّمين؛ وعليه فإنّ المتكلّم يعبّر عن رؤيته للعالم بوساطة الكلمات التي يستعملها، وهذه الرؤية للعالم هي بطبيعة الحال ذاتيّة واجتماعيّة، في المقابل الأطروحة التي تسلّم بالوجود المستقلّ للسمات الدلاليّة عن المرجع الموضوعيّ. وهذه الأطاريح قديمة جديدة في التفكير اللغويّ وهي التي خاضت في العلاقة بين الكلمات والأشياء. لقد تجاوزت اللسانيّات البنويّة أخطاء النحو المقارن في مصادراته على اللغة المكتوبة، ووضع قواعد صارمة لمعرفة اللغة الأمّ واللغات الأخرى. وبدل التركيز على الجملة صار الملفوظ مادة للتقطيع، وكان لا بد من اجتراح لغة واصفة تولّدت منها مصطلحات جديدة.

جرى التمييز بين الكلمة والوحدة الصرفيّة الصغرى "المورفيم" (morphème)؛ إذ عدّت الكلمة أصغر جزء في الملفوظ يحمل محتوى الفكرة؛ ولهذا استبدل بعضهم مُتصوَّر الكلمة بمصطلح "المورفيم[117]"؛ لأنّ المورفيم بخلاف الكلمة غير قابل للتجزئة. فإذا كانت مفردة السيميائيّات كلمة، فهي تتألف من أربعة كلمات-مورفيمات ال/سيمياء/يّ/ات. وبدأت الكلمة تفقد وزنها في الاستعمال، وحجمها يتقلّص في الوحدة الخطيّة داخل الخطاب المكتوب.

اللغة الواصفة: إرهاصات الصفاء الاصطلاحيّ

طفق الصفاء الاصطلاحيّ يلوح في أفق سيميائيّات غوتفريد لايبنتز (1646- 1716) Gottfried Leibniz وتوماس هوبز (1588- 1679) Thomas Hobbes؛ إذ حصل تمييز بين الكلمة والأمارة والعلامة. إنّ الكلمة من حيث إنّها أمارة الفكرة بالنسبة إلى الشخص الذي يفكّر تقابلها العلامة التي تجسّد الفكرة في الخارج. في حين لم تحظ "الكلمة" بأيّ إشادة لطيفة من قِبَل معجم السيميائيّات[118]، وقدّم المعجم انطباعًا عامًا غير محمود عن هجرانها، ووصفها بالمصطلح المُراوغ في اللسانيّات، وهو يحذو حذو النعل ما سلكه دو سوسير؛ ولهذا فشلت كلّ المحاولات لاستدراج هذا المصطلح إلى التطبيقات اللسانيّة، وتخليصه من الشوائب التي لحقت به من جرّاء الدراسات اللّغوية المقارنة واللسانيّات التاريخيّة، ولم يذكر المعجم أيّ مجال لاستعمال مصطلح الكلمة في التطبيقات السيميائيّة، وإن عاد في مواضع عديدة للحديث عنها عرضًا.

عبّر بنفينست[119] عن الصعوبة في فهم كيف يتحوّل "المعنى" إلى "كلمة"؛ ولكنه رأى أنّ الوحدة السيميائيّة هي العلامة، أمّا الوحدة الدلاليّة فهي "الكلمة[120]"؛ وذلك في ظلّ التمييز الذي يقيمه بنفينست بين السيميولوجيّ والدلاليّ، وكذلك بين الجملة والملفوظ[121]، وهذا ما لم يأخذه معجم السيميائيّات لگريماص وجوزاف كورتاس (1936-...) Joseph Courtès في الحسبان. علمًا أنّ گريماص كان قد تبنى هذا التمييز في الدلاليّات البنويّة، ووقف عليه في المعجم، وأشار إلى أنّ ((دلالات العالم الإنسانيّ تقع في مستوى الإدراك... الذي يصلح لتحديد العالم الحسيّ))122؛ بيد أنّ الدلاليّات "تروم وصف عالم الخصائص الحسيّة[123]"، وظلّت الكلمة ملازمة للجملة؛ بيد أنّ التركيب صار من المنظور البُنويّ عبارة عن توليف من المورفيمات؛ ولكن المعاجم تعالج الكلمات، وليس المورفيمات.

وهنا لا بد من الاستعانة بلغة واصفة جديدة ستطرحها الدراسات المعجميّة والدلاليّات البنويّة في التمييز بين الكلمة ومصطلحات لسانيّة أخرى، ومنها الوحدة الصرفيّة الصغرى "المورفيم[124]" (morphème) بالاصطلاح

الأمريكيّ وهي جزء من الكلمة بالتعبير التقليديّ، ولها وظيفة نحويّة. وهذا المصطلح يخصّ به مارتيني العناصر النحويّة والوحدة المعجميّة الصغرى بالنسبة إلى القاعدة المَعجميّة، وكلاهما يمثّل في نظر مارتيني فئات المونيمات. أمّا المونيم[125] (monème) باصطلاح أندريه مارتيني فيدلّ على العلامة اللّسانيّة الدّنيا، وهي الصورة للتقطيع الثّاني. والمعجمة (lexie) التي ابتدعها بوتييه، وربطها بالبعد الدلاليّ هي ((الوحدة الوظيفيّة التي تختزنها الذاكرة على صعيد الكفاية التي تتشكّل بطبيعة الحال من الكلمة ومن تحويلاتها المختلفة))[126]، وأراد لها يامسلاف أن تكون الوحدة التي تقبل التحليل عن طريق الاختيار[127] في إطار الجملة التي تقبل القسم إلى وحدات، وتمثّل عند رولان بارت "وحدات قراءة".

تعدّ المفردة (lexème) من حيث إنّها وحدة معجميّة صغرى علامة تنتمي إلى المعجم؛ ويشير معجم السيميائيّات إلى أنّ المفردة في الاستعمال الجاري هي الكلمة128؛ ولكن ليست مكتفيّة بذاتها؛ لأنّ أمر الدلالة يعود إلى الملفوظ في مجموعه، وليس في أجزائه. ويدعونا المعجم إلى الاستمرار في التعامل مع المفردة على أنّها مونيمات أو مورفيمات على صعيد العلامات؛ لأنّها تكون قابلة للتحديد[129]، أو أنّها صورة (figure) بالاصطلاح اليامسليفيّ تسهم في تصوير عالم الخطاب وبيان دلالته.

وما هو لافت في هذا السياق الإشارة التي ختم بها المعجم تعريفه للمفردة، وتتمثّل في أنّ حضور الوحدة المعجميّة الدنيا على صعيد العلامات ((نتاج للتاريخ والاستعمال أكثر منها نتاجًا للبنية))[130]. وهي مما لاريب فيه إشارة فارقة تدعونا للتفكير مليًّا في ربط المفردة داخل الخطاب بالدلالات المفتوحة؛ لأنّ ذلك يجعلنا أمام الممكنات الدلاليّة وحضور الافتراضات الممكنة التي تعدّ ((أثرًا للمعنى وسُمْكِها أو لانفجار الكلمات))[131]. وهذا مدخل لطيف مهّد الطريق لسيميائيّات العالم الطبيعيّ والسيميائيّات التصويريّة وسيميائيّات الأهواء وسيميائيّات الكلام.

إنّ مصطلح الكلاسيم (classème) الذي ابتدعه أيضًا بوتييه يعني في المعجم ((المجموعات الفرعيّة للوحدات المعنويّة الصغرى "sèmes" التي تؤلّف مع الوحدة الدلاليّة الصغرى "sémantème" (المجموعة الفرعيّة للسيميمات المخصوصة) ومع الوحدة الافتراضيّة الصغرى "virtuème" (المجموعة الفرعيّة للسيميمات الإيحائيّة) لتكوّن الوحدة الدلاليّة الصغرى "sémantème"))[132]؛ ويستعمله گريماص استعمالًا يرتبط بالخطاب، وبالسيمات السياقيّة، وينسجم مع مصطلحات أخرى مثل السيمات " sèmes" والسيمات الصغرى " sèmèmes". وما يعنينا هنا تلك الملاحظة الثانية (ب) التي أبداها المعجم بخصوص هذا المصطلح؛ إذ إنّ عمليّة ((جرد الكلاسيمات من وجهة، والسيمات الجامعة من وجهة أخرى تُستخدم إطارًا لتبويب العالم بوساطة اللغة، وتؤلِّف أصنافًا من الأشياء أو الكائنات))[133]. وهذه الكلاسيمات في صورة كلمات تختلف الرؤية للعالم التي تحملها من ثقافة إلى ثقافة أخرى.

قد اجترح أندريه مارتيني (1908- 1999) André Martinet مصطلح الوحدة التوليفيّة الصغرى (synthème)، و((تشتغل بوصفها مونيمات وحيدة، ويُفتَرَض أن يكون استعمالها بمعزل عن تدخّل طابعها الدلاليّ المركّب في أيّ شيء))[134]. والملاحظ أنّها تقترب من مصطلح الكلمة المفرّغة أو الصورة باصطلاح يامسلايف. هذه المصطلحات جميعها تنتمي إلى التركيب والصرف والمعجم والدلالة. لقد بدأ گريماص معجميًّا بمجرّد وصوله

إلى فرنسا عام 1945، ولم يجد حسب قوله[135] شيئًا ذا بال في اللسانيّات، فتردد على شارل بيرنو (1883-1938) Charles Bruneau وروبير-ليون فاغنر (1905- 1982) Robert-Léon Wagner، فارتبط بجورج ماتوري (1908- 1998) Georges Matoré وبيرنار كيمادا (1926- 2018) Bernard Quemada. لقد سجّل أطروحة بعنوان "مفردات الموضة"، ومع هؤلاء تشكّلت مجموعة أولى من الباحثين في المعجميّات؛ ليشرع گريماص وماتوري وجوست تريبه (1894- 1970) Jost Trier في قراءة دو سوسير. ومن الطبيعيّ أن يتأثروا بمبدأ المحايثة الذي لا ينظر إلى العالم خارج اللغة، وأنّ هذا العالم لا وجود له خارج العلامة.

ظلت سيميائيّات مدرسة باريس متحصّنة بالسياج البنويّ؛ ولهذا فإنّ تصورّها للكلمة لم يمرق عن موقف اللّسانيّات البنويّة، وعبّر عنه معجم السيميائيّات بما يتماهى مع ما طرحه دو سوسير في محاضراته؛ وعليه فإنّ المنهج البنويّ لم يتجاوز الإطار التركيبيّ والصرفيّ والمعجميّ، والبحث في بنية الكلمة وعلاقتها بالكلمات الأخرى ضمن علم التركيب والمعجم. ولم تعالج الكلمة من المنظور الدلاليّ-المنطقيّ وهو بيت القصيد فيما نحن بصدده. وقد فتحت الصناعة القاموسيّة (lexicographie) المجال للكلمة لإدراجها في المبحث الذي يرتبط بمعتقدات المتكلّم وواقعه وثقافته ورؤيته للعالم. فلا وجود لكلمة مفرّغة من الدلالة أو مستقلة عن سياقها اللغويّ والدلاليّ.

وعلى الرغم من أنّ الطابع الفنيّ للصناعة القاموسيّة؛ فإنّ هذه الصناعة ذات صلة بالدلاليّات المُعجميّة التي لا تكتفي بالتركيز على البعد اللّسانيّ الخالص للكلمة دون ربطها بإدراك العالم. وقد يلاحظ الدارس أنّ المعاجم العربيّة القديمة -كما تقدّم- ذات ثروة أنثروبولوجيّة ينبغي استثمارها في السيميائيّات الأنثروبولوجيّة والثقافيّة على غرار ما استدركته سيميائيّات الأهواء في العودة إلى المعجميّات التي بدأ بها گريماص مسيرتها العلميّة. ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها للتدليل على ذلك أنّ المعاجم العربيّة القديمة لا تكتفي بتقديم الصوغ التقنيّ لمفردة "الناقة" على سبيل المثال؛ وإنما تشير إلى أبعادها الأسطوريّة والدينيّة والثقافيّة والأدبيّة، وتصوّر رؤية الإنسان للناقة وتجاربه الحيّة مع محيطه؛ ومن ثمّ لا نكتسب من كلمة الناقة معرفة لغويّة معجميّة من دون حمولة ثقافيّة؛ ولكن نكتسب رؤية للعالم؛ إذ لا ينفصل فيها نظام الكلمات عن نظام الأشياء ضمن إدراك المتكلّم للعالم، والتي لا يمكن طلبها إلّا في الخطاب.

ولهذا ألفينا معجم تحليل الخطاب يفرد مساحة لمفردة الكلمة بخلاف معجم السيميائيّات، ويشير إلى الدراسات الإحصائيّة المعجميّة. ((من الأكيد أنّ الكلمات التي يتعرّف عليها الحاسوب لا تطابق كلمات أ. مايي، إذ أنّ الآلة تُحصي بلا تمييز مجموعات حروف مفصولة ببياض...ولا يدرس القيس المعجميّ إذن المعنى درسا مباشرا. لكن المقاربات بين المدوّنات والعلاقات الرابطة بين الصيغ تُوضّح شروط اشتغال المعنى))[136]. ومن المعلوم أنّ تحليل الخطاب مدرسة فرنسيّة تجاوزت الدراسات التقليديّة التي كانت تركّز على تحليل المضمون، وركزت على البعد الاجتماعيّ مع ميشال بيشو (1938- 1983) Michel Pêcheux في مسألة التخاطب inter discours.

ولا غرو أن ترتبط الكلمات بدلالاتها الاجتماعيّة والسياسيّة، ويتغيّر معناها حسَب البعد التداوليّ في سياق نظريّة التلفظ وحضور الآخر في تحديد هُويّة الكلمات في الخطاب. ويرصد معجم تحليل الخطاب التطوّر الحاصل في الاتجاهات الجديدة في تحليل الكلمات داخل الخطاب، وهو يتمرّد على مُتصوَّر العلامة، ويقحم

الكلمات في المقاربات الإثنيّة في بناء المعنى. ففي ((تحليل الخطاب لم تعد وحدة العلامة المعجميّة موضوع مصادرة عند التيّار الأقرب إلى الإثنيّين المنهجيين: فالمعنى يُبنى في التفاعل، ويُقحم الكلمة في الأنشطة العمليّة لفاعلين موجودين في مقامات عمل متنوّعة))[137]. ومن الباحثين في هذا المجال لم يجدّدوا الثقة في الكلمة أو حصرتها في الإحاليّة (الروابط) كما هو في التداوليّات المُدمجة لأزوالد ديكرو (1930- ...) Oswald Ducrot.

إذا سلّمنا بوجود مسافة بين الكلمة والعالم. فما المسار الذي يسلكه علم المدلولات[138] (sémasiologie)؟ أينطلق من الكلمة ليتّجه إلى العالم (الأشياء والأفكار) أو يسلك مسار علم الدوال[139] (onomasiologie) لينطلق من العالم (الأشياء والأفكار) ليتّجه إلى الكلمات؟ وعندما نتمعّن في هذه المسارات يخيّل إلينا أنّ سديم الكون والعالم قابع في قفص الكلمات ومفردات المعاجم والموسوعات، وعندما تعجزها الحيلة في تقديم العالم بالكلمات تستغيث بالصور والأيقونات وروابط الفيديوهات.

خاتمة

أخذت الكلمات على عاتقها التعبير عن رؤية الإنسان الذاتيّة للعالم، وعن موقفه من الآخر، ومن المجتمع الذي يعيش فيه؛ ولهذا لم يكن موضوع الكلمة وقفًا على علماء اللغة وفقهائها، بل اشتركت علوم أخرى في مدارسته؛ إذ شكّل مادة خصبة للدراسات الفلسفيّة والأنثروبولوجيّة[140] والتكنولوجيّة، فوجد فيه هؤلاء مسلكًا لدراسة ذهنيّات الأفراد والجامعات. إنّ رصيد الكلمات يشكّل معجم اللغات؛ وهذا المعجم يعدّ في نظر ميخائل باختين (1895- 1975) Mikhaïl Bakhtine وفولوشينوف مؤشّرًا دالًّا وقويًّا على التحوّلات الاجتماعيّة الحسّاسة[141].

فرض العالم نفسه على علم المعجم الذي فسح أمامه المجال حتى وإن كان السياج البنويّ ومبدأ المحايثة يصدع بالقول "إنّ الكلمة ليست هي العالم"، وأنّ كلمة حيّة لا تلدغ، وكلمة الإبل لا يُسمع لها رُغاء. وظلّ الاحتكام الضيّق لهذا المبدأ وحدود سياجه عائقًا أمام فتح آفاق جديدة للدراسات السيميائيّة وأسئلة جديدة من قبيل إذا كانت الحيّة لا تلدغ فلماذا ارتبطت كلمة لدغ بالحيّة، ولم يرتبط الرُغاء بالناقة؟ ولماذا تلجأ الأمثال والاستعارات إلى المزج التصوّريّ في ربط سلوك الخداع الناعم والقاتل بالحيّة؟ على نحو ما نلفيه في المثل السائر من لدغته الحيّة خاف من الدود أو في قول طرفة بن العبد[142] (خشاش كرأس الحيّة المتوقد). ومدار الإشكال ليس كيف ننطق مفردة الحيّة بقدر ما هو عن ماذا نتكلّم؟ وشتّان بين كيف نتكلّم وعن ماذا نتكلّم؟ وهو بيت القصيد.

فرض هذا الإشكال على گريماس أن يبحث عن حلول بل عن تأويل لمعضلة المرجع أو السياق الذي يقع خارج اللغة في ظل قيود مبدأ المحايثة، فاهتدى إلى وضع شروط لسيميائيّات العالم الطبيعيّ الذي يظهر فيه العالم للإنسان في نسق من الخصائص الحسيّة وعلاقته بالبنية العميقة للكون. وأنّ صفة الطبيعيّ الملازمة لموصوف العالم توازي اللغات الطبيعيّة والإيماءات، والغرض من ذلك أن يتوسّع مجال الدراسات السيميائيّة ليشمل الثقافات. وهذا باب متّسع فتحه يوري لوتمان ومدرسة تارتو.

لنا في سيميائيّات ش. س. بورس (1839- 1914) Ch. S. Peirce فسحة كبيرة لمدارسة العالم تبعًا لنظريّته الثلاثيّة في العلامة[143]، ومفهوم الدلالات المفتوحة وواقعيّته، ويمكن أن نستوعب انطلاقًا من تصوّره

الكوسمولوجيّ للعلاقة بين الكلمات والأشياء بناء على ثنائيّة العلامة ومُتصوَّر الموضوع ونظريّة التطوّر. صحيح أنّ مُتصوَّر الكلمة لا يكاد يخلو من اشتباه؛ بيد أنّ منطق بورس قائم على فكرة الغموض (logic of vagueness). ويمكن أيضا استدعاء في هذا المقام الواقعيّة النقديّة لفيغينشتاين الذي تساءل كيف نستعمل الكلمة؟ وماذا نحن صانعون بها؟ هذه الأسئلة تعلمنا كيف نفهم الكلمة[144]. وتنضاف هذه المرجعيّات وغيرها إلى المعجميّات لفهم علاقة الكلمات بالأشياء. وهو ما استدركته سيميائيّات الأهواء لاستكمال مبحث صيغ الوجود وعالم الحسّ.

والملاحظ فيما بسطناه وعرضناه وناقشناه وحلّلناه أنّ الكلمة كان لها حضور أوفر من حضور العالم ورؤيته باستثناء حضورها في التراث العربيّ والإسلاميّ، والسبب يكاد يكون بديهيًّا؛ ذلك أنّ الدراسات اللغويّة التقليديّة والحديثة على السواء لم تكن لطيفة المعشر مع الفلسفة والمنطق؛ ولا سيّما تلك التي اختارت الإبستيمولوجيا البنويّة، فسيّجتها بمبدأ المحايثة، وكانت مطمئنة وهي داخل هذا السجن الذي ليس فيه نوافذ لتطلّ منها على العالم الخارجيّ؛ وخُيّل لها أنّ العالم هو ما تقدّمه أسطورة الكهف واستعارتها. والمقصد لا ريب نبيل؛ لأنّ هذا الكهف هو العالم لا غيره.

لعلّنا أسرفنا في التفاؤل بوجود صفاء اصطلاحيّ، ونحن نقدّم اللغة الواصفة التي اصطفتها اللسانيّات والسيميائيّات بخصوص مُتصوَّر الكلمة أملًا في الاقتراب من فهم العلاقة بين الكلمة والشيء والفكرة أو بين الكلمة وإدراك العالم. وقد كان لنا شاهد مكتمل الصورة في مآلات مصطلحيّة حلقة كوبنهاغن التي مثّلها هانز أولدال ولويس يامسلاف، فلم يُكتَب لها الحياة قبل الذيوع مع العلم أنّها كانت تتّسم بالدّقة العلميّة المتناهيّة والانضباط المنهجيّ والصفاء الإبستمولوجيّ، ويمكن الوقوف على ذلك في مؤلفاتهم. وهذا ينطبق على تلك المصطلحيّة التي اجتهد أصحابها في وضعها لإثراء المعرفة اللسانيّة والسيميائيّة والدفع بالإنسانيّات لتزاحم العلوم الأخرى في مناهجها وتطبيقاتها؛ لكن صارت هذه المصطلحات على أهميّة بعضها عبئًا إجرائيًّا في غياب توافق داخل مجتمع العلماء. وكل ما سبق يجعل الكلمة مرتبطة أشدّ ما يكون الارتباط بمُتصوَّرات الفكرة والشيء والموضوع. وهذه المُتصوَّرات جميعها قوام علاقة العلامة بالعالم.

إحالات البحث

1 - Anne Hénault, Les enjeux de la sémiotique, Paris, éd. PUF, 2012, pp. 34-36.

2 - بيرنار بوتييه، بحوث حول التحليل الدلالي في اللسانيات والترجمة الآلية، تر. رشيد بن مالك، بيروت ومسقط، دار الانتشار العربيّ، والنادي الثقافي بمسقط، ط. 1، 2018، ص. 82.

3 - Bernard Pottier, Linguistique générale; Théorie et description, Paris éd. Hachette, 1974, p. 59.

4 - John Searle, Sens et Expression. Études de théories des actes de langage, trad. et préface de J. Proust. Paris, éd. Minuit, 1982, p. 187.

5 - باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر. عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، مر. صلاح الدين الشريف، تونس، المركز الوطنيّ للترجمة، دار سيناترا، 2008، ص. 381.

6 - Henry Boyer, Philippe Gardy, Jean-Marie Marconot, et Paul Siblot, Questions sur les mots : analyses sociolinguistiques, Paris, éd. Klincksieck, 1987.

7 - Les mots, leur sens, leur forme, leur création et leur reconnaissance, cordonné par D. Limane, Igor Skouratov et Izabella Thomas, in revue annuelle Bulag, éd. PU Franc-Comtoises, Année 2002, n 27.

8 - باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر. عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، مرجع سابق، ص. 380.

9 - Gilles Petrequin, Le dictionnaire françois de Richelet: un «aventurier» de la lexicographie, In: L'Information Grammaticale, N. 114, 2007, pp. 5-6.

10 - الفارابيّ، إحصاء العلوم، بيروت، مركز الإنماء القوميّ، 1991، ص. 10.

11 - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدّم له: طه عبد الرءوف سعد، مصر، مكتبة الكليات الأزهرية، د. ت.، ص. 8.

12 - - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، مرجع سابق.، ص. 10.

13 - الخليل بن أحمد الفراهيديّ، العين، تح. مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، بيروت، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، 1988، 48/1.

14 - حسن عباس، النحو الوافي، مصر، دار المعارف، ط. 5، 300/1.

15 - أبو البركات بن أبي سعيد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تع. محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. 1، 1961، ص. 300.

16 - ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تح. صاحب أبو جناح، بغداد، مطبوعات وزارة الأوقاف العراقيّة، 1980، 610/1.

17 - إنّ المركّب ما دلّ جزء لفظه على جزء معناه.

18 - باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص. 380. وقع المترجمان والمراجع في هفوة؛ فإنّ ماري-فرانسواز مورتيرو أنثى وليست بذكر، فالصواب كما تنصّ على ذلك، وليس كما ينصّ على ذلك.

19 - باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص. 382.

20 - Gerrard Delesalle, Lire Peirce aujourd'hui. Bruxelles, éd, Universitaires, De Boeck Université,1990, p. 41.

21 - يُنظر الفصل الثاني: الكلمة والمعنى [49- 82] من كتاب إيتيان جيلسون، اللسانيات والفلسفة: دراسة في الثوابت الفلسفيّة للّغة، تر. قاسم المقداد، سورية، دار نينوى، ط. 1، 2017.

22 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, Préface Jean Fourquet, Paris, éd. Librairie C. Klincksieck, 1959, p. 45.

23 - له كتاب اللغات والأعراق Les langues et les races.

24 - Honoré Joseph Chavée, Lexiologie Indo-Européenne ou essai sur la science des mots, Paris, éd. A. Franck, 1849, p. IX.

25 - Ibid.

26 - ومن مؤلفاته: قواعد الألمانيّة المفصّلة (A Grammar of the German Language)، ودليل الدرس الأوّل لتعليم اللغة الألمانيّة (A Grammar of the German Language)، وقواعد اللغة الألمانيّة (A Grammar of the German Language) ...إلخ.

27 - ينظر أحمد يوسف، متصوّر الموضوع في الدراسات السيميائيّة، الجزائر/جامعة بجاية، مجلة التأويل وتحليل الخطاب (مقبول للنشر).

28 - ينظر ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، الجزائر، وبيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ودار الروافد الثقافية-ناشرون، ط. 1، 2021، ص. 40.

29 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 41.

30 - Sylvain Auroux, Jacques Deschamps et Djamel Kouloughli, La philosophie de langage, Paris, éd. PUF, 1996, p. 11.

31 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 42.

32 - Pierre Pénisson, Heymann Steinthal et la psychologie linguistique des peuples, Revue germanique internationale, 10 | 1998, 41-50.

33 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 42.

34 - Pao Chang, Word magic: The Powers and Occult Definitions of Words, Esoteric Knowledge Publishing, (Second Edition), 2019.

35 - أوغدن وريتشاردز، معنى المعنى: دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزيّة، تر. وتقد. كيان أحمد حازم يحيى، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. 1، 2015، ص. 123.

36 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 43.

37 - أوغدن وريتشاردز، معنى المعنى: دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزيّة، تر. وتقد. كيان أحمد حازم يحيى، مرجع سابق، ص. 329.

38 - Sylvain Auroux, Jacques Deschamps et Djamel Kouloughli, La philosophie de langage, 0p. cit., p. 96.

39 - الجاحظ، رسالة الجد والهزل ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تح. وتع. وتق. محمد طه الحاجري، بيروت، دار النهضة، 1983، ص. 100.

40 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 48.

41 - Sylvain Auroux, Jacques Deschamps et Djamel Kouloughli, La philosophie de langage, 0p. cit., pp. 96-97, 100-104.

42 - ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، مرجع سابق، ص. 48.

43 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، الكويت، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع. 227، نوفمبر 1997، ص. 49.

44 - المرجع السابق، ص. 50.

45 - Sylvain Auroux, Jacques Deschamps et Djamel Kouloughli, La philosophie de langage, op. cit., p. 4.

46 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 51.

47 - المرجع السابق، ص. 62.

48 - المرجع السابق، ص. 34.

49 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., p. 139.

50 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 42.

51 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., p. 23.

52 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 45.

53 - المرجع السابق، ص. 48.

54 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., pp. 125-159.

55 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 41.

56 - Voir C. Kerbrat-Orecchioni, Interactions verbales, Paris, éd. Armand Colin, 1991.

57 - Hélène Trépanier, Le geste: Entre l'âme et le corps, Réflexion sur la gestualité dans l'art, in Portée, théories et pratiques sémiotiques, volume 20, n° 2, printemps 1992, p. 62.

58 - ينظر أمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، تر. سعيد بنگراد، مر. سعيد الغانمي، مرجع سابق، ص. 71.

59 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 51.

60 - السيميائية وفلسفة اللغة، تر. أحمد الصمعي، مرجع سابق، ص. 48.

61 - ينظر أمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، تر. سعيد بنگراد، مر. سعيد الغانمي، مرجع سابق، ص. 71.

62 - Platon, Cratyle, Paris, Les belles lettres, 1966, p. 384 d.
63 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., p. 42.
64 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., p. 80.
65 - Aristote, De Interpretatione, 16b, 27-34 ;17a, 1-5.
66 - "Les sons émis par la voix sont les symboles [συμβολον] des états de l'âme, et les mots écrits les symboles des mots émis par la voix" Aristote, De l'interprétation, I, 16 a 3), trad. J. Tricot (1936), Éditions Les Échos du Maquis, v. : 1,0, janvier 2014, p. 9.
67 - Joseph Courtès, Analyse Sèmiotique du discours: De l'énoncé á l'énonciation, Paris, éd. Hachette, 1991, p. 12.

68 - أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، مرجع سابق، ص. 73.

69 - ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، مرجع سابق، ص. 54. بتصرّف.

70 - المرجع السابق، ص. 54.

71 - المرجع السابق، ص. 34.

72 - المرجع السابق، 59.

73 - أمبرتكو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، تر. سعيد بنگراد، مر. سعيد الغانمي، مرجع سابق، ص. 67.

- أمبرتكو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر. أحمد الصمعي، مرجع سابق، ص. 48.

74 - Umberto Eco, Sémiotique et philosophie du langage, p. 39.
75 - Ludwig Wittgenstein, Tractatus logico-philosophicus suivi de Investigations philosophiques, trad. Pierre Klossowski, Paris, éd. Gallimard, 1961, p. 235.
76 - Sylvain Auroux, J. Deschamps et D. Kouloughli, La philosophie du langage, op. cit., p. 140.

77 - أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر. أحمد الصمعي، مرجع سابق، ص. 80.

78 - سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، بيروت، دار الجمل، ط. 1، 4/241-242.

79 - ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، تح, ودر. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ط. 2، 1993، 1/17.

80 - الشريف الجرجاني، التعريفات، تح ودر. محمد صديق المنشاويّ، القاهرة، دار الفضيلة، تاريخ الإيداع 2004، مادة [كلمة].

81 - المرجع السابق، ص. 199.

82 - فخر الدين الرازي، الإشارة في علم الكلام، تح. ودر. هاني محمّد حامد محمّد، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشر والتوزيع، 2009، ص. 29.

83 - ينظر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم: عقائد الفرق الإسلاميّة وآراء كبار أعلامها، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ص. 136.

84 - ابن رشد، تهافت التهافت، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، 1998، ص. 429.

85 - ينظر البغدادي، الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ص. 125.

86 - المرجع السابق، ص. 126.

87 - المرجع السابق، ص. 126.

88 - المرجع السابق، ص. 126.

89 - الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، حرّره وصحّحه: ألفرد جيوم، بغداد، مكتبة المثنى، ص. 322.

90 - أبو الحسن الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، 1990، 1/268.

91 - البغدادي، الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ص ص. 115-116.

92 - المرجع السابق، ص ص. 119، 129.

93 - Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Édition critique préparée par Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1972, p. 32.
94 - Ibid., p. 147.
95 - Ibid., p. 148.

96 - Ibid., p. 148.
97 - Ibid., p. 158.
98 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, op. cit., pp. 10- 101.
99 - Michel Arrivé, Les Éléments de syntaxe structurale, de L. Tesnière, In: Langue française, n°1, 1969. La syntaxe. pp. 36-40.
100 - Jean Fourquet, Préface de Lélément de syntaxe structurale de Lucien Tesniere, op. cit., p. 3.
101 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, op. cit., p. 12.
102 - Ibid., p. 13.
103 - Ibid., p. 13.
104 - Ibid., p. 41.
105- Ibid., p. 16.
106 - Michel Arrivé, Les Éléments de syntaxe structurale, de L. Tesnière, op. cit., p. 37.
107 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, op. cit., pp. 23-24.
108 - Ibid., p. 25.
109 - Michel Arrivé, Les Éléments de syntaxe structurale, de L. Tesnière, op. cit., p. 38.
110 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, op. cit., p. 52.
111 - فضّلت كلمات مفرّغة (mots vides) على كلمات فارغة؛ لأنّ الفراغ والامتلاء ليست صفات للكلمات في ذاتها، على منوال الاستثناء المفرّغ.
- Ibid., p. 53.
112 - A.-J. Greimas, Sémantique structurale, pp. 130-131.
113 - Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, op. cit., p. 94.
114 - Voir Enrico Arcaini, Principes de linguistique appliquée: Structure- Fonction- Transformation, Paris, ed. Payot, 1972, pp. 118-121.
115 - Voir F. Corblin, Lucien Tesnière (1893-1954). Éléments de syntaxe structurale », in H. Huot (dir.), La grammaire française entre Comparatisme et Structuralisme. 1870-1960, Paris, Armand Colin, 1991, p. 227.
116 - ينظر رشيد بن مالك، بيرنار بوتييه: مساره اللساني وإنجازاته العلميّة، مقدمة لكتاب بحوث حول التحليل الدلالي في اللسانيات والترجمة الآلية، تر. رشيد بن مالك، مرجع سابق، ص. 13.
117 - Patrick Charaudeau, Grammaire du sens et de l'expression, Paris, éd. Hachette, 1992, p.12.
118 - A. J. Greimas et J. Courtès, Sèmiotique; Dictionnaire raisonnè de la thèorie du langage, Paris, èd. Hachette, 1993. mot.
119 - Emile Benveniste, Problèmes de linguistique, 2, Paris, éd. Gallimard, 1974, p. 81.
120 - Ibid., p. 225.
121 - Ibid., p. 230.
122 - A. J. Greimas, sémantique structurale: Recherche de méthode, Paris, éd. PUF, 1986, p. 9.
123 - Ibid., p. 9.
124 - A. J. Greimas et J. Courtès, Sèmiotique; Dictionnaire raisonnè de la thèorie du langage, op. cit., morphème.
125 - Ibid., monème.
126 - Bernard Pottier, Linguistique générale: Theorie et description, Paris, èd. Klincksieck,1974, p. 644.
127 - A. J. Greimas et J. Courtès, Sèmiotique; Dictionnaire raisonnè de la thèorie du langage, op. cit., lexie.
128 - Ibid., lexème.
129 - Ibid., lexème.
130 - Ibid.
131 - Ibid.
132 - Ibid., classème.
133 - Ibid., classème.
134 - André Martinet, Syntaxe générale, Paris, éd. A. Colin, 1985, p. 36.
135 - Chevalier Jean-Claude, Encrevé Pierre, La création de revues dans les années 60 : matériaux pour l'histoire récente de la linguistique en France. In: Langue française, n°63, 1984, Vers une histoire sociale de la linguistique, P. 75.
136 - باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر. عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، مرجع سابق، ص. 383.
137 - المرجع السابق، ص. 384.

138 - A. J. Greimas et J. Courtès, Sèmiotique; Dictionnaire raisonnè de la thèorie du langage, op. cit., sémasiologie.
139 - Ibid., onomasiologie.
140 - Jean Leroux, Langage et pensée chez W. von Humboldt, Philosophiques, vol. 33, n° 2, 2006, p. 381.
141 - Mikail Bakhtine et V. N. Volochinov, Le marxisme et la philosophie du langage: Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, trad. Marina Yaguello, Préface de Roman Jakobson Paris, Ed.de Minuit, 1977, p. 38.
142 - أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تعرفونه *** خُشَاشًا كرأس الحيَّةِ المُتوَقِّدِ
طرفة بن العبد، الديوان شرح الأعلم الشنتمريّ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة، تح. دريّة الخطيب ولطفي الصقّال، بيروت والأردن والبحرين، دار المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ودار الفارس للنشر والتوزيع، ودائرة الثقافة والفنون، ط. 2، 2000، ص. 53.
143 - Ch. S. Peirce, Écrits sur le signe, rassemblés, trad. et commentés par Gérard Deledalle, Paris, éd. Seuil, 1978, p. 143.
144 - Ludwig Wittgenstein, Grammaire philosophique, éd. posthume établie par Rush Rhees, trad. Marie-Anne Lescouret. Paris : N.R.F., 1980, p. 44.

مَراجِعُ البَحث

المراجع باللغة العربيّة:

- أحمد يوسف، متصوّر الموضوع في الدراسات السيميائيّة، الجزائر/جامعة بجاية، مجلة التأويل وتحليل الخطاب (مقبول للنشر).
- ألكساندر أفاناسيفيتش بوتيبتا، الفكر واللغة، تر. تحسين رزاق عزيز، الجزائر، وبيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ودار الروافد الثقافية-ناشرون، ط. 1، 2021.
- أوغدن وريتشاردز، معنى المعنى: دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزيّة، تر. وتقد. كيان أحمد حازم يحيى، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. 1، 2015.
- إيتيان جيلسون، اللسانيات والفلسفة: دراسة في الثوابت الفلسفيّة للّغة، تر. قاسم المقداد، سورية، دار نينوى، ط. 1، 2017.
- باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر. عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، مر. صلاح الدين الشريف، تونس، المركز الوطنيّ للترجمة، دار سيناترا، 2008.
- أبو البركات بن أبي سعيد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تع. محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. 1، 1961.
- البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم: عقائد الفرق الإسلاميّة وآراء كبار أعلامها، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا.
- بيرنار بوتيبه، بحوث حول التحليل الدلالي في اللسانيات والترجمة الآلية، تر. رشيد بن مالك، بيروت ومسقط، دار الانتشار العربيّ، والنادي الثقافي بمسقط، ط. 1، 2018.
- الجاحظ، رسالة الجد والهزل ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تح. وتع. وتق. محمد طه الحاجري، بيروت، دار النهضة، 1983.
- ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، تح. ودر. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ط. 2، 1993.
- أبو الحسن الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، 1990.
- حسن عباس، النحو الوافي، مصر، دار المعارف، ط. 5.
- الخليل بن أحمد الفراهيديّ، العين، تح. مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، بيروت، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، 1988.

- ر. هـ روبنز، تاريخ موجز علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، الكويت، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع. 227، نوفمبر 1997.
- ابن رشد، تهافت التهافت، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 1، 1998.
- رشيد بن مالك، بيرنار بوتييه: مساره اللساني وإنجازاته العلميّة، مقدمة لترجمة كتاب بحوث حول التحليل الدلالي في اللسانيات والترجمة الآلية، بيروت ومسقط، دار الانتشار العربيّ، والنادي الثقافي بمسقط، ط. 1، 2018.
- سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، بيروت، دار الجمل، ط. 1.
- ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدّم له: طه عبد الرءوف سعد، مصر، مكتبة الكليات الأزهرية، د. ت.
- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح ودر. محمد صديق المنشاويّ، القاهرة، دار الفضيلة، تاريخ الإيداع 2004.
- الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، حرّره وصحّحه: ألفرد جيوم، بغداد، مكتبة المثنى.
- طرفة بن العبد، الديوان شرح الأعلم الشنتمريّ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة، تح. درية الخطيب ولطفي الصقّال، بيروت والأردن والبحرين، دار المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ودار الفارس للنشر والتوزيع، ودائرة الثقافة والفنون، ط. 2، 2000.
- ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تح. صاحب أبو جناح، بغداد، مطبوعات وزارة الأوقاف العراقيّة، 1980.
- الفارابيّ، إحصاء العلوم، بيروت، مركز الإنماء القوميّ، 1991.
- فخر الدين الرازي، الإشارة في علم الكلام، تح. ودر. هاني محمّد حامد محمّد، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشر والتوزيع، 2009.

المراجع باللغة الأجنبيّة:

- A. J. Greimas, sémantique structurale: Recherche de méthode, Paris, éd. PUF, 1986.
- A. J. Greimas et J. Courtès, Sèmiotique; Dictionnaire raisonnè de la thèorie du langage, Paris, èd. Hachette, 1993.
- André Martinet, Syntaxe générale, Paris, éd. A. Colin, 1985.
- Anne Hénault, Les enjeux de la sémiotique, Paris, éd. PUF, 2012.
- Aristote, De l'interprétation, I, 16 a 3), trad. J. Tricot (1936), Éditions Les Échos du Maquis, v. : 1,0, janvier 2014.
- Bernard Pottier, Linguistique générale; Théorie et description, Paris éd. Hachette, 1974.
- Ch. S. Peirce, Écrits sur le signe, rassemblés, trad. et commentés par Gérard Deledalle, Paris, éd. Seuil, 1978.
- Chatrine Kerbrat-Orecchioni, Interactions verbales, Paris, éd. Armand Colin, 1991.
- Chevalier Jean-Claude, Encrevé Pierre, La création de revues dans les années 60 : matériaux pour l'histoire récente de la linguistique en France. In: Langue française, n°63, 1984, Vers une histoire sociale de la linguistique.
- Emile Benveniste, Problèmes de linguistique, 2, Paris, éd. Gallimard, 1974.
- Enrico Arcaini, Principes de linguistique appliquée: Structure- Fonction- Transformation, Paris, ed. Payot, 1972.
- Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Édition critique préparée par Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1972.
- Francis Corblin, Lucien Tesnière, Éléments de syntaxe structurale », in H. Huot (dir.), La grammaire française entre Comparatisme et Structuralisme. 1870-1960, Paris, Armand Colin, 1991.
- Gerrard Deledalle, Lire Peirce aujourd'hui. Bruxelles, éd, Universitaires, De Boeck Université,1990.
- Gilles Petrequin, Le dictionnaire françois de Richelet: un «aventurier» de la lexicographie, In: L'Information Grammaticale, N. 114, 2007.
- Hélène Trépanier, Le geste: Entre l'âme et le corps, Réflexion sur la gestualité dans l'art, in Portée, théories et pratiques sémiotiques, volume 20, n° 2, printemps 1992.
- Henry Boyer, Philippe Gardy, Jean-Marie Marconot, et Paul Siblot, Questions sur les mots: analyses sociolinguistiques, Paris, éd. Klincksieck, 1987.

- Honoré Joseph Chavée, Lexiologie Indo-Européenne ou essai sur la science des mots, Paris, éd. A. Franck, 1849.
- Igor Skouratov et all., Les mots, leur sens, leur forme, leur création et leur reconnaissance, cordonné par D. Limane, Igor Skouratov et Izabella Thomas, in revue annuelle Bulag, éd. PU Franc-Comtoises, Année 2002, n 27.
- Jean Leroux, Langage et pensée chez W. von Humboldt, Philosophiques, vol. 33, n° 2, 2006.
- John Searle, Sens et Expression. Études de théories des actes de langage, trad. et préface de J. Proust. Paris, éd. Minuit, 1982.
- Joseph Courtès, Analyse Sèmiotique du discours: De l'énoncé á l'énonciation, Paris, éd. Hachette, 1991.
- Lucien Tesniére, Eléments de syntaxe structurale, Préface Jean Fourquet, Paris, éd. Librairie C. Klincksieck, 1959.
- Ludwig Wittgenstein, Grammaire philosophique, éd. posthume établie par Rush Rhees, trad. Marie-Anne Lescouret, Paris, éd. N.R.F., 1980.
- Ludwig Wittgenstein, Tractatus logico-philosophicus suivi de Investigations philosophiques, trad. Pierre Klossowski, Paris, éd. Gallimard, 1961.
- Michel Arrivé, Les Éléments de syntaxe structurale, de L. Tesnière, In: Langue française, n°1, 1969. La syntaxe.
- Mikail Bakhtine et V. N. Volochinov, Le marxisme et la philosophie du langage: Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, trad. Marina Yaguello, Préface de Roman Jakobson Paris, Ed. de Minuit, 1977.
- Pao Chang, Word magic: The Powers and Occult Definitions of Words, Esoteric Knowledge Publishing, (Second Edition), 2019.
- Patrick Charaudeau, Grammaire du sens et de l'expression, Paris, éd. Hachette, 1992.
- Pierre Pénisson, Heymann Steinthal et la psychologie linguistique des peuples, Revue germanique internationale, 10 | 1998.
- Platon, Cratyle, Paris, Les belles lettres, 1966.
- Sylvain Auroux, Jacques Deschamps et Djamel Kouloughli, La philosophie de langage, Paris, éd. PUF, 1996.